عنوان الكتاب: الموت للجنجويد

المؤلف: محمد محي الدين أبوزكو

الناشر: نشر ذاتي – محمد محي الدين أبوزكو

الغلاف: هويدة عبدالعزيز

عدد الصفحات: 127

ردمك: 978-99942-60-01-7

الفهرس

الإهداء

إلى

صديقي محمد صلاح (بزيانوس) الذي قال لي مرةً

أؤمن تماماً أنك ستغدو كاتباً عظيماً ذات يوم.

مقدمة

لم أؤيد الحرب يوما، أو سفك الدماء، انا شخص محب للسلام لكني أدرك أيضــا ان الود ليس حلا لجميع المشــاكل، واحيانا يجب عليك خوض حربا ضـــارية لإحلال الســـلام وإن فقدت حياتك في الطريق، فزت بحياة أخرى لن تضـــطر فيها للندم على جبنك.

محمد محي الدين أبوزكو

صديقي ميشو

ميشو صديقي العزيز، كلانا نحب شوارع مدينة الكوة والتنزه على ضفة النيل الأبيض بعد المغيب وتناول شاي اللبن الذي تعده أمي العزيزة حاجة التومة، غير أنه أحيانا تغمره موجة غضب عارمة فينبح ويعوي على كل شيء يتحرك امام باب منزلنا ولا يستكين الا على صوت والدتي وهي تهدده بالحرمان من العشاء.

قبل ثلاثة أسابيع وصلت الحرب اللعينة أبواب مدينتنا، مئات من العربات المدججة بالسلاح الخفيف والثقيل أحاطت بها من جوانبها الثلاثة، وجوه مغبرة عابسة تحمل الموت في تقاسيمها، رؤوسهم تحمل جبالا من القماش وصدورهم النحيلة مليئة بالغضب من كل شيء في المدينة، يرتدون اشرطة الرصاص بجانب التمائم المتدلية من أعناقهم الطويلة، ملابسهم المتسخة المشوهة بالبقع لا تقل قذارة عن أفواههم التي تلقي الشتائم والسباب كما تلقي السلام، دينهم الظاهر هو الإسلام حيث تعلو أصواتهم (الله اكبر) ودينهم الباطن هو القتل وانتهاك العرض والنهب والتشريد، يسمونهم في غرب ووسط افريقيا (عرب الشتات) وفي غرب السودان يسمونهم

(الجنجويد) ويسميهم الساسة الخبيثون (قوات الدعم السريع) اما اسمهم الحقيقي فهو (تجار الموت) وطنهم الحقيقي حيث يستطيعون ممارسة هوايتهم المفضلة في اعدام الحياة.

لقد قتل تجار الموت صديقي العزيز، أطلقوا ثلاثة عشر رصاصة على رأسه بينما كان ثابتا صلبا لم تهزه ابواق سياراتهم المسروقة من الخرطوم، لم يعلمه الوفاء الذي يجرى في دمه ان يهرب، قتلوه مدافعا عن بيت اطعمه وجدران احتمى بها، قتلوه لأنه لم يرضخ لهم ولأنه أشرف من ان يخون صاحبه.

اخذوا كل شيء اعجبهم من منزلنا، وكسروا ما عجزوا ان يجدوا له متسع في قوافلهم المحملة بالملابس المستعملة والأواني اللامعة القادمة رفقتهم من الخرطوم ومدن أخرى، لم تنجوا حتى الأكواب الزجاجية والأواني الفخارية التي تحتفظ بها حاجة التومة منذ ثلاثون عاما، وفي نهاية الامر لم يتبقى ما يتقاتلون عليه سوى بعض أوراق نقدية قليلة كنت قد جمعتها طوال خمسة أعوام من عملي المتواضع كمعلم رياضيات، وأحيانا كمزارع يمتهن الزراعة الموسمية، وقبل خروجهم قرر احد المراهقين منهم ان يحرق الستائر ومفارش الحرير

الموضوعة على الترابيز الخشبية التي حاكتها امي قبل سبعة اعوام، كانوا يهتفون لزوال حكم الفيلول وهم يمزقون ملابسي المعلقة ويصورون كل شيء بنهم وإدمان، ثم غادروا بعد ان قاموا بتوجيه فوهة بندقية حديثة في وجهي لم أرى مثلها من قبل إلا في الأفلام الأجنبية، بندقية لا يزال حديدها يلمع وهي موجهة على راسي بينما كنت أراقبهم يدمرون كل شيء عزيز علينا في صمت مخزي دون ردة فعل، ومن رحمتهم بي اكتفوا ببعض الركلات على ظهري بأحذية صلبة ولطمات خفيفة تحملها وجهي بدون شعور.

كنت خائفا أن يطلقوا ثلاثة عشر رصاصة أخرى على امي حين وقفت تلعنهم حتى جدودهم الأوائل، لكنهم قاموا بمعاقبتها على ذلك بكل شيء يخصها من ذكريات ومستلزمات تحمل سنين من الحنين، كسروا خزانة ملابسها التي عمرت عمرا يفوق عمري، ونهبوا ثيابها ومجوهراتها النحاسية المطلية باللون الأصفر الذهبي، كانوا يتخاطفون فيما بينهم على مقتنياتنا كغنائم حرب، ككنوز فرعونية، وقبل ان يخطوا خارج منزلنا بحثا عن منزل آخر قالوا لنا لا تخافوا بعد أن جربتم شعور الظلم ستجربون الآن شعور العدل والديموقراطية.

لم أرى أمي خائفة بذلك القدر من قبل كما رأيتها في تلك اللحظات، صـــارت تتفحص قدماي وظهري المتقطر بالدماء ويداها ترتجفان، تبكي وتلعنهم بأمهاتهم.

أما أنا قد فقدت الشعور بجسدي حتى غسلت لي حاجة التومة ظهري بالماء الدافئ، ومسحت لي وجهي المتورم، كان ألما لم اجربه من قبل، لكنه لم يكن يساوي شيئا من خوفها أو فقد ميشـو، لقد تركوا راسه عبارة عن قطعة لحم في انتظار التتبيل.

في الليل قطعوا التيار الكهربائي عن المدينة، علت أصوات الرصاص المفرغ في الهواء او رؤوس الكلاب لا أدري، وغالبا على رؤوس بعض البشـر الرخيصة فصراخ النساء والأطفال يخبر الكثير، وحتى قبيل الفجر بقليل تم اسـكات جميع الكلاب في المدينة وتعبت افواه بنادقهم من الصراخ.

في اليوم التالي، استطعت التحرك بصعوبة، باب منزلنا الصـلب كان لا يزال صـامدا رغم محاولاتهم لقتله هو أيضـا فنقرات الرصـاص عليه واضـحة جدا، خرجت متثاقلا وأول ما وقعت عيناي عليه هي السـيارات منزوعة الأسـقف والملطخة بالطين على جوانبها، كانت الطرقات تشبه مرآب سيارات عسكرية، تصطف كل

الاحجام والانواع على مد البصـــر وأمام المنازل يعلوها مراهقين وشـــباب ورجال يلمع الشـــيب في وجوههم يصرخون كأطفال في رحلة مدرسية وهم يرفعون أسلحة لا علم لهم بمدى خطورتها.

لقد وضـــعوا ثلاثة ســـيارات في اول الطريق الذي يمر بمنزلنا وأربعة أخرى واقفة امام منزل الأســـتاذ حســـين مدير المدرســـة الثانوية، اما الدراجات النارية فقد كان أزيز محركاتها عبارة عن طنين لخلية نحل وقعت من غصن شجرة.

عدت ادراجي الى الداخل، أمي تحاول ترميم خزانة الأواني المكتظة بشظايا الزجاج وبقايا الأكواب والأطباق المتكومة على الأرفف وتنظيف الغرفة من الحريق الذي أكل كل المفارش والصـور المعلقة وسـاعة الحائط وكتب والدي الدينية، اما بقية الأشياء التي نجت فهي قد غادرت رفقتهم لقد أخذوا كل شـــيء كان لنا، بدء من هاتفي نهاية بالعطور التي كانت تجهزها أمي حاجة التومة لزواجي من الدهباية، لم يتركوا لنا ســـوى ملابســـنا التي نرتديها والأسرة الخشبية وبعض الأواني المتسخة، وجسد ميشو النائم في سبات عميق خلف الباب، وروحينا البائستان.

بعد الظهيرة جاء الأستاذ حسين مدير المدرسة الثانوية لمقابلتي، نظراته المشفقة تفحصت منزلنا أو ما تبقى منه، تلى علي بعض عبارات المساندة التي حفظها منذ ثورة ديسمبر وأكد لي أن هناك اجتماع لنقابة المعلمين في منزله وعلينا جميعا الحضور، للمساهمة في حل هذه المشكلة التي وأقعتنا فيها القوات المسلحة بإنقلابها على الحكم المدني – على حد قوله، وقد أكد لي أن ما حدث لنا البارحة كان مجرد سوء فهم وانهم ظنوا أنني انتمي للكيزان، وسوف يتم تعويضي عما حدث، في البدء فكرت حقا في الذهاب لكن ما الفائدة من تعويضي، فلن يعود ميشو حيا مرة أخرى، والخوف الذي لبس تلك المرأة العجوز لن تنسى ملامحه حتى بعد سماعها ألف بيان اعتذار.

وقبل مغادرته منحني سببا كافيا لعدم الذهاب، حيث قال وهو يخرج من فوق جسد صديقي النائم:

(نحن في النقابة ندعم كل سبل التفاوض والحوار للوصول لحل يحفظ أرواحنا وممتلكاتنا فليس لدينا خيار آخر).

كنت أعلم أن الأستاذ حسين هو عبارة عن كلب سياسي كان يتملقنا أثناء الثورة وأن حزبه ليس إلا متسلق آخر همه الوحيد كرسي السلطة ومكاتب الحكومة الفاخرة، لكن ليس بهذه القذارة.

أي حل سلمي كان يقصد؟

ففي الأمس كنت سلميا معهم وذلك ما حدث لنا، ثم لما لم يكن التفاوض قبل إفزاع أمي ونهب مدخراتنا؟

انا أفضل الموت مدافعا عن عرضي بدلا من عيش حياتي وهؤلاء المرتزقة يتجولون معي في الشوارع، لقد اتخذت قراري، لن أذهب.

في الليل اشتد المرض على أمي، السكر قد ارتفع لديها بلا شك وقد نفدت الأدوية قبل فترة دون انتباه مني، لذا خرجت نحو السوق آملا أن اجد صيدلية لا تزال في الخدمة، كان علي الوقوف بعد كل طريق للتفتيش وتفسير سبب حملي لمبلغ خمسة الف جنيه معي في هذا الوقت من الليل، وقد نجوت من ثلاثة توقفات كانت اغلب أسئلة الرجال الذين يحتمون خلف مدافع أطول من أشجار النخيل تدور حول عملي وانتمائي السياسي، والسؤال الأكثر تكرارا هو ما اذا كنت افضل حكم الفيلول أو

الديموقراطية، وحين وصلت الصيدلية الوحيدة التي تعمل وجدت احد هؤلاء المرتزقة يقف في ظهر الصيدلي بسلاح متعطش لرمي رصاصه على أي احد يرفع يده دون إذن، حيث طلب مني ابراز اثبات هوية مكتوب عليه انني لا انتمي للكيزان، ولم يكن من الأساس هنالك اثبات للهوية يوضح الانتماء السياسي، وحين نفيت حملي لهكذا مستند كان عطوفا بما يكفي ليمنحني خيار آخر، وهو أن أصور فيديو لهم.

لقد كذبت في كل حرف قلته في الفيديو، ذكرت أنني تعرضت للضرب من قبل قوات المخابرات العسكرية، وذكرت كذلك انهم نهبوا مني سيارتي واموالي المدخرة منذ عشرات السنين وقلت أيضا انهم هددوني بالقتل، لقد كذبت حتى بشأن زوجتي التي لم تكن بعد، وفي النهاية أعطوني ما احتجت له من ادوية، ثم في طريق عودتي سمحوا لي بالمرور دون أي تفتيش حتى وصلت ومنحت امي دوائها، جلست لفترة بجوارها غارقا في الظلمة التي تحيط بنا وضوء الفانوس الزيتي الصغير يتأرجح بسكينة وسط ما تبقى من منزلنا.

بكيت، بكيت كثيرا، لم أستطع فعل شيء، لقد كنت جبانا البارحة حين جاءت كلابهم إلى منزلي، لم اتصدى لهم

كما كان ليفعل والدي، بكيت لأنني كذبت بشـــأن ما حدث لي، كذبت عليهم وعلى نفســـي وكذبت حتى على وطني، لكنني لســت نادما رغم ذلك، ربما قد يســمون ذلك خيانة للوطن، لكنني أفضل ان اكتب بارا بوالدتي على ان اتقلد وسام للوطنية بعد موتها.

في الصباح كنت آخر الواصلين، استقبلني الأستاذ حسين وعلى وجهه ابتســـامة لم تعجبني مطلقا، كان غير خائفا من شـــيء وهو يتجول وســـط جموعهم الغفيرة، يتحدث معهم بحرية لا اراها في وجوه الجميع هنا، جلســت رفقة الآخرين، العم صالح تاجر المحاصيل الأكبر في المدينة، ومعتمد المحلية كذلك كان حاضـرا، معلمين وعمد القبائل وسـائقي سيارات النقل، مزارعين وصيادي السمك، كل الوجوه تجمعت هنا، منهم من كان وجهه مليئا بالندوب ومنهم من كان وجهه مليئا بالابتسامات المزيفة.

بعد برهة من الوقت دخل الأســـتاذ حســـين، يرافقه أحد هؤلاء المرتزقة وهو يرتدي زيا عســكريا باهت الصــفر تترامى عليه بقع رمادية ويحمل سلاحا على خصره، وقد بدأ حديثه مصـــليا على الرســـول محمد ثم أكمل خطابه مترحما على شهداء الثورة.

كادت بدايته المرتبة هذه أن تنطلي علينا وتقنعنا بما يريد، أو كادت تقنعني انا بما يريد، فقد اقتنع الآخرين وبدت وجوه الحاضرين تسترخي وتزداد انشراحا بعد كل جملة يعد بعدها بالتعايش السـلمي وحفظ الأمن، أما أنا عرفت أساليب هؤلاء العملاء منذ زمن بعيد، فقد صدروا أنفسهم قادة على الثوار في الخرطوم، ثم مارسـوا هوايتهم المفضلة في اقتسـام السـلطة مع العسكر والآن بعد ان أشعلوا الحرب يريدون غسل عقولنا.

وفي ختام حديثه قال ان هؤلاء المأجورين هم أمل السـودان القادم، الأسـتاذ حسـين الذي كان يعلم أطفال المدينة معنى حب الوطن وشرف الدفاع عنه، الآن يضع يده بيدهم بل ويحاول تنظيف صـورتهم الملوثة قبل مجيئهم، يا للقذارة وضعف النفس.

في نهاية الجلسـة صـفق الحضـور وعلت تكبيراتهم وهتافاتهم وقد اتفقوا على أن يعيدوا التيار الكهربائي ويضـعوا قوات لحفظ النظام والدفاع عن المدينة بعد ان اعتذر القائد الجنجويدي لنا عن الفظائع التي قام بها مندسين وسط قواته على حد قوله، وان التعويض سوف يكون كبيرا لكل من مسه سوء، وسوف ينال كل مجرم عقابه.

غادرت عائدا الى المنزل، كنت أتسائل كيف يمكننا النجاة وسط هذا الكم الهائل من الفاسدين والقادة الجشعين الآن أدركت أن الطمع لا يعرف مكانة أو سلطة، بإمكان إمام المسجد البسيط أن يسرق المصلين بدعوى حسنات الذكاة، ابتعدت عنهم وقد اتخذت قراري الذي ظننته لن يخطر ببالي مهما يحدث من كوارث بسبب هذه الحرب، أمي ليست على ما يرام وحالتها الصحية لا تزال غير مستقرة ولن أستطيع الاعتناء بها هنا والسعي نحو رزقي في ذات الوقت، وعلى أي حال لم يبقى لنا شيء هنا، فمنذ عامين توقف العام الدراسي وعملي في تجارة السمك تعطل بعد توقف الصيادين عن الصيد مع دخول هؤلاء البرابرة الهمج الى القرى المجاورة، لم يتبقى لي سوى خياران، أن اقبل بما قبل به معظم أهل المدينة واتعايش مع هؤلاء المرتزقة، او مغادرة المدينة.

انا اتفهم ربما العديد من هؤلاء الذين قد وافقوا على ذلك هم اضطروا للحفاظ على حياتهم واموالهم، والبعض وافق لأنه لا يملك مكان يلجأ له ويخشى التشرد في المجهول، أما انا فلدي الخيار، أملك ما يكفي من الشجاعة لأن أتشرد على أن أصافح رجلا دينه القتل وأخلاقه السلب والنهب.

بعد محاولات صعبة تمكنت من اقناع امي بالمغادرة وترك منزلها الذي بنته بيدها لسكان جدد بلا مقابل، وعند الفجر خرجنا على عربة أحد تجار الخضار الذاهبة جنوبا نحو الجزيرة أبا، هناك سوف تعتني بها الدهباية لحين عودتي، وبمرور ما لا أعرف كم من الوقت قد كان استقبلتنا يافطة قديمة على جانب الطريق الملتف نحو اليمين تبرز عليها عبارة (مرحبا بكم في الجزيرة أبا) وقد غادرنا الكوة الحبيبة، وربما الى الابد.

القلب الذي يقاتل، هذا الجسد مجرد أداة.

لم توافق امي على مغادرتي الجزيرة أبا بسـهولة الا حين اخبرتها بأن نيتي السـفر نحو مدينة الأبيض وسـط السـودان، وفي الحقيقة كانت وجهتي هي أم جديان، قرية والدي في الحدود الشـرقية لمدينة ربك، هناك أسـتطيع اللحاق بموسـم الزراعة ولو انني تأخرت قليلا لرمي البزور، لكن لم يكن لدي متسـع من البدائل وهي المكان الوحيد الذي يمكنني الذهاب إليه الآن، باعت الدهباية احدى خرافها السـبعة حتى أسـتطيع شـراء ما يلزمني للحاق بالموسـم الزراعي وقبل مغرب الشـمس كانت العربة المتوجهة نحو ربك قد تركت يافطة أخرى خلفها كتب عليها (وداعا، صحبتكم السلامة).

وصـلت مدينة ربك عند السـابعة والربع، وبعد انتظار سـاعة أخرى في الموقف المزدحم بالحقائب والأرجل المرتبكة النازحة نحو كل الجهات تحركت بنا العربة الآيلة للتقاعد نحو الشـرق وهي تئن من فرط ارهاق محركها، بجواري كان يجلس رجل أشـيب منهك القوى يجلس متكئا على المقعد الضـيق، تقاسـيم وجهه المتعبة تكفي لتعكس ما به دون أن ينطق بحرف، دار بيننا حديث

سريع عرفت خلاله أن اسمه عبدالله وهو قادم من مدينة زالنجي بعد ان شردت الحرب كامل أهل المدينة.

سألته عن حال اسرته فلم يستطع جفنه المتورم حبس دموعه، دفن وجهه الطويل بين كفيه ثم أجهش بصوت منتحب كقط جائع وسرعان ما استجمع قواه مرددا (الحمد لله على قضائه وقدره) فأدركت ما ألم به واستحيت أن احثه على الحديث، لكنه كان بحاجة للكلام.

استطرد:

- لقد قتلوهم الأربعة. ثم صمت.

تعالت أصوات الجالسين حولنا (البقاء لله، ربنا يصبرك يا حاج)

- الحمد لله على كل حال. ربنا موجود. قال ذلك بكل ما يملك من قوة.

كان صوته متكسر، تعب ومرهق، جلبابه الأبيض ملطخ بالأتربة وبقع دم صغيرة، عيناه غائرتان، متمالك قواه بعزيمة تشع من جبينه، سألته.

- ماشي وين يا أبوي؟

ماشي اتجند.

- لكن جسدك ما يتحمل.

سحب نفسا عميقا ثم قال:

القلب الذي يقاتل، هذا الجسد مجرد أداة.

كانت كلماته كافية لإنهاء النقاش، لم يكن لدي ما يكفي من الحجج لإقناعه بالعدول عن قراره، هذا العجوز جاء من زالنجي حتى يقاتل، يبحث عن فرصة ليحيا ما تبقى من عمره، يدفعه كل شيء فقده للمقاومة والثبات مقاتلا او ليموت بكرامة، ولن يستطيع شخص مثلي هارب من مدينته أن يثنيه.

كانت سرعة السيارة مقبولة نوعا ما ليست سريعة وليست بطيئة، وفي خضم حديثي مع الحاج عبد الله انشغلت عن متابعة الطريق من حولنا حتى توقفنا أمام نقطة تفتيش أظنها للجيش فلم تصل كلاب الجنجويد إلى هذه المنطقة من ولاية النيل الأبيض بعد، ضوء المصابيح الخافت تكسر على جسد الرجل الذي يرتدي قميص مخطط وبنطال قطني أسود معلقا كلاشنكوف على كتفه ومتفقدا مستندات التراخيص لسائقي السيارات بهمة ونشاط.

حـين وصـلت خطواتـه السـريعة لسـيارتنا كـان حديثـه للسائق حازما.

- رخصتك، وين ماشي يا زول؟

ماشي سنار. أجاب السائق بثقة وهو يناوله الرخصة.

تفحص الرجل الرخصـة بمصـباح يدوي، أخذ من الوقت أطول مما يجب في فحص الرخصة حتى تململ الركاب، فأشـاح بالمصـباح علينا واحدا تلو الآخر كمن يعد فراخا مشـحونة الى المذبح، ثم ابتعد نحو احدى السـيارات المدرعة التي تنتصب بجانب الطريق وعلى ظهرها يقف جندي منتصـبا كعامود إنارة خلف مدفع رشـاش متأهبا للتسديد، وحين عاد الرجل صاح لي.

- انزل.

انا يا سعادتك؟ كان حديثه مفاجئا لي.

- أي انت، والحاج المعاك.

لم يبدي الحاج عبد الله أي اعتراض، كان متقبلا لحديث الرجل في صمت بينما كنت أحاول فهم ما في الأمر.

قادنا نحو العربة ومن خلف زجاج النافذة الجانبية أطل ضابط ما على كتفه رميت نجمتان، تفحصنا هو الآخر بمصباح اقوى، وصاح للرجل الأول.

- قول لبتاع العربية دا يمشي.

يا سعادتك، في شنو العربية ح تخلينا هنا؟ سألته.

- وديهم المعسكر. أكمل حديثه مخاطبا الرجل، ولم يبدي أي اهتمام بسؤالي.

كالخراف المسروقة تم رمينا في عربة الجيش المدرعة وبعد عدة تعرجات والتفافات تم اقتيادنا الى معسكر ما لست أدري في أي مكان يقع غير أنه بين ولاية النيل الأبيض وولاية سنار، أضواء الكشافات المنتصبة في أبراج المراقبة الخمسة تتقاطع فيما بينها على كل شيء يتحرك، تم منحنا بعض الماء وادخلنا لخيمتان منفصلتان، لقد سمعت احد الجنود في الخيمة المجاورة يطلب من الحاج عبدالله ان يستريح ويتناول بعض الطعام، بينما تم تفتيشي أنا ثلاثة مرات، اخذت بطاقتي القومية والنقود التي بحوزتي ثم تركت في خيمة جافة لا شيء فيها سوى فرش من الحصير والظلام الدامس، كانت محركات السيارات لا تتوقف، يفوح المعسكر بالدم وبالصراخ

والضرب والشتائم، اتهامات ترمى على الكثيرين، واقدام الحراس لا تتوقف عن تكرار الخطوات من حولي في كل الجهات.

جاء الصباح أخيرا، لم أستطع النوم بما يكفي ظهري ما زال يؤلمني وبطني الخاوية أكلتني من الداخل ولم تشبع، جاء الحاج عبد الله بصحبة أحد الجنود ناولني قطعة من العصيدة وبعض اللبن، كان إصراره على منحي الطبق أقوى من نفور الجندي المرافق له على اطعامي.

مر الصباح دون أي جديد، منفيا في معسكر للجيش في بقعة ما، ربما لا أدري سبب حبسي هنا بعد، لكن على الأقل اعلم انني لن أموت برصاص جنجويدي غاضب من الفيلول مصاب بداء إقامة الديموقراطية على جثث الشعب.

ما قبل الظهيرة جاءني ضابط برتبة ملازم اول كانت النجمتان اللامعتان على كتفه اول ما تراه منه، سألني:

- هل تدخن؟

لا، شكرا يا سعادتك.

- انت من بتين شغال مع الجنجويد؟

شنو؟ انا ما شغال مع الجنجويد يا سعادتك.

- خليك صريح معاي عشان أقدر اساعدك شكلك ما بتاع مشاكل وود بلد.

والله ما شغال معاهم يا سعادتك، العساكر نزلوني مع الحاج عبد الله من العربية وكنت ماشي ازرع.

- طيب، ده ما انت؟ كان سؤاله غريبا بعض الشيء، ناولني هاتفه وعليه مقطع فيديو أظهر انا فيه.

الآن تذكرت، نعم انا في الفيديو، واقفا امام صيدلية وحولي مجموعة من الوجوه المغبرة اتحدث عن تعدي المخابرات العسكرية علي وعلى زوجتي، يا إلهي كيف اقنعه انني مكرها صورت هذا الفيديو؟.

لقد شعرت بدفء يسيل على خدي، بكيت، وأعدت له الهاتف وبالكاد استطعت ابتلاع العبرة التي تخنقني.

استدركت.

- ده انا يا سعادتك ما بنكر، لكن والله ما شغال معاهم.

طيب لشنو كذبت في الفيديو، سألني وهو يشعل سيجارته.

- عشـــان علاج امي يا ســـعادتك، امي عيانة ودي الصــيدلية الوحيدة الكانت شــغالة وهم طلبوا مني اصور الفيديو.

لم يسـألني مرة أخرى، غادر وتلاه ضـابط آخر، ثم آخر، وآخر، كانوا يعيدون على ذات الأسـئلة ويعرضـون علي ذات الفيديو، بعضـــهم يضـــربني على وجهي والبعض الآخر على صـــدري وظهري، والبعض يهددني بالإعدام في ميدان عام، لقد كانت أســوأ أيام حياتي، ثلاثة أيام من التحقيقات، الضـــرب، عدم النوم، طعام قليل واضـــواء بغيضـــة موجهة على وجهي طوال الليـل، وكثير من الشتائم والسباب، لقد تمنيت الموت خلال هذه الأيام، وفي اليوم الرابع جاء الضـابط الأول ليخبرني بأنني بريء من التهم، لقد تم اتهامي ولم أكن على دراية بذلك، لقد جعلوا مني خـائنـا لوطني، اتهموني بـالتعـاون مع تجـار الموت، وقد عـاملوني معـاملـة الكلاب، اعتبروني مرتزقـا لأنني صورت فيديو من أجل الحفاظ على سلامة أمي. سألته:

- كيف عرفت أنني بريء يا سعادتك؟

لدينا مصـــادرنا هناك في الكوة تأكدت، الآن لديك الحرية بالمغادرة. قال ذلك بكل بساطة.

- اغادر وين؟ انا وين حاليا؟

انت في منطقة عسكرية، بعد غروب الشمس سنعيدك الى ربك، أو تنتظر حتى الغد لنعيدك الى ذات المكان الذي جئت منه.

نقلوني الى خيمة الحاج عبد الله، كان ينام على ســـرير خشـــبي وفراش من القطن، لديه حافظة مياه ومروحة خاصة به، سألته:

- ما اتهموك بشيء يا حاج عبد الله؟

لا يا ولدي أصـــلا هم شـــافوا صـــورتي في الانترنت لما ضربوني، وقلت ليهم عايز استنفر.

- يعني خلاص لقيت مرادك؟

دي مشيئة الله يا ولدي، وربنا اختصر علي طريق طويل.

لم اسـتمر في محادثته، كنت مرهقا كمن يحمل جبلا على كتفيه، استأذنته أن اخذ قسط من النوم، رميت نفسـي على الفراش الذي يجاوره، قدماي وظهري وكل عظمة في جسـدي كانت تؤلمني، ربما هي مشـيئة الله أن أكون هنا، وأن اتعرض للضـــرب في بيتي من قبل الجنجويد لأنهم شكوا بانتمائي للفلول، والآن اتعرض للضرب من الجيش

لأنهم شكوا بانتمائي للجنجويد، وان أكون هنا رفقة كهل عجوز جاء من غرب السودان مشردا حتى ينضم لصفوف الجيش ويقاتل من سرقوا منه حياته، كنت متعبا بصورة لم احتاج فيها إلا لغلق عيناي والغرق الكامل في النوم.

في فجر اليوم التالي تركتني احدى العربات العسكرية في الطريق الترابي المنحدر نحو قرية أم جديان، بحوذتي ثلاثة وعشرون ألفا من الجنيهات وقنينة مياه وظهري الذي لم يشفى من اعتداء الجنجويد ليستقبل اعتداء ضباط التحقيق في المعسكر.

كان علي الانتظار حتى تمر بي سيارة ما، استلقيت على جانب الطريق حتى ايقظتني اشعة الشمس ثم نهضت وواصلت المشي ما يقارب ساعة ونصف الساعة ولم تظهر أي سيارة بعد، اكملت ما يقارب الساعتان سيرا على قدماي حتى بدت القرية في الأفق تلوح لي صغيرة جدا كدمى طينية لأطفال يلعبون في الظهيرة، الأراضي الزراعية من حولي تستعمرها الطيور والسراب ولا أرى أثر لبشر فيها، التربة الرطبة لم تنبت محاصيلها بعد، استرحت قليلا تحت احدى أشجار السنط ثم واصلت

رحلتي حتى اقتربت بما يكفي لأجد أثر لشـــــيء لم أكن لأتوقعه حتى في سابع أحلامي.

رائحة الجثة المرمية على جانب الطريق كادت أن تشــق أنفي من فرط قوتها، أظنها لرجل فالعباءة البيضـــاء وإن استحالت الى اللون الأسود فهي تحتفظ بكامل قوامها ولم تتمزق مع الميت الذي تحلل ما تبقى منـه، وأكلت منـه الديدان الجزء الذي خلفته الصقور والسباع، كيف لم يمر به أحد من أهل القرية؟ ماذا أفعل الآن؟.

اشـحت بنظري نحو القرية، القطاطي الحلزونية المشـيدة من القصـب وجريد النخيل شـارفت على السـقوط بعد ان منحتها النيران كسائها الأسود، لقد حرقوا القرية بالكامل، يا إلهي ما الذي حدث هنا؟.

هرولت نحو داخل القرية، لم يصـــادفني بيتا ســـليما، الجدران التي لم تـأكلهـا النيران هـدمـت، والبيوت التي بنيت بـالقرميد هدمت، جثـة أخرى وثلاثـة هنـاك، كلـب ميت وحمـار معلق على شــــجرة مـا، وفي المدى ثلاثـة نسور تجمعت على رأس طفل مفصول عن جسده، لا أثر للحياة قد تبقى، ربمـا مـا زلـت نـائمـا في المعســـكر هنـاك وهذا مجرد كابوس مؤقت، أطفـال ونســاء وشـيوخ جمعوا

كالفاكهة الفاسدة، ككومة قش، كحزمة تبن في انتظار الحرق.

لقد ذهب عني ألم الظهر، تلاشى الصداع الذي يلفني وعادت قدماي للمشي بصورة سليمة، صرخت بأعلى صوتي، وحدها اجنحة النسور الكاسرة تجيب علي، أين انا؟، وصلت الى المسجد، كان هنالك تسعة مستلقيين في صف واحد، يتقدمهم جسد منكفئا في سجوده، لقد قتلوا حتى المصليين في بيت الله، أي كفر قد وصلوا إليه؟.

تقدمت نحو السوق، كانت البيوت مفتوحة على مصارعها، أواني مرمية على الأرض، خزائن منهوبة، وشباب سرقت أحلامهم، لم تكن هذه مجزرة أبدا، بل كانت يوم قيامة، أنفي فقدت قدرتها على الشم، كل الروائح الآن دخان، خليط من الموت يحيط بي، قبور في العراء وسرادق العزاء هي السماء.

وصلت أخيرا الى بئر لماء الشرب الذي ينتصب في وسط القرية أذكر جيدا موقعه، كان يقرصني الظمأ كسكين تنهش في لحمي، سحبت الدلو المعلق بحبل بلاستيكي نحو الخارج، بئر من الدم، خرج الدلو وبصحبته يد مبتورة، بل يد امرأة مبتورة فالخاتم الذي يحيط بإصبعها يكاد ينشطر من اختناقه بانتفاخ الإصبع

المخضـــــب بـالحنـاء، أفلتـه ووقعت على ظهري، أردت البكاء، لقد مات صـوتـي وجفت دموعي، وهناك في أعلى الجبل لمحت الراية التي تخفق، بيضــاء دون عليها عبارة ما بخط رديء صـــعب علي تهجئته فـاقتربـت لأرى بوضـــوح العبارة الحمراء التي تســيل (جاهزية ســـرعة حســـم) أو هذا ما خيل لي، في الأصـــل كانت العبارة (جاهلية سرقة دمار).

استلقيت على صـخرة ضـخمة منتصـبة في بداية السـفح الجبل وأغمضــــت عيناي، لربما ينتهي هذا الكابوس، أو تفيض الســماء بماء يغســل هذه المحرقة، لم احتاج لكثير من التفكير لأدرك أن تجار الموت قد مروا من هنا، لكني لا أفهم ما الثمن الذي قد قبضـوه حتى ينسـفوا الحياة بهذه المتعة.

إلى اين أذهب الآن؟ عاد ظهري يؤلمني وقدماي عجزتا عن النهوض، اســـترخيت في مكاني، ربما هذه النهاية، نهاية لم أتوقعها، أن أحمل كل هذا الســـواد في قلبي ثم أموت، ان اشــــهد بأم عيني ما فعله هؤلاء المرتزقة ثم أفنى.

اشـــعة الشـــمس قد احتجبت بالســـحب المتكومة، ربما سـيهطل المطر الآن ليغسـل هذه الأرض بدلا من سـقيها،

وهؤلاء الشهداء سيزرعون الذرة والقمح والسمسم في الجنة، الرؤية ضبابية الآن لكني ما زلت أرى السحب السوداء وهي تظلل اجنحة النسور والعقاب من تحتها، اسمع من مكاني هنا الآن تلك المرأة قرب البئر تصرخ لهم بأن يعفوا عنها، قلعت لهم كل مجوهراتها، ولم يعفوا عنها، اسمعها الآن تبكي، تتوسل، ثم تصمت للأبد برصاصة في رأسها، وطفلها على مقربة كان مختبئا نهض الآن ليرى ما حل بها، عيناه البريئتان تشاهدهم وهم يقطعون يد والدته ليستلوا الأساور ويهتفوا في نزوة حيوانية، صرخ بأعلى صوته، كشفوا أمره، ركض مبتعدا، أرسلوا خلفه أسرعهم، كقطة تطارد فأر يلحق به بين الشجيرات الصغيرة، يجري خلفه كذئب يطارد حملا للعشاء، تعب الذئب فرفع بندقيته واكتفى برصاصة واحدة اطبقت عليه، هتف عاليا لجائزته في الرماية (الله اكبر).

تتلاشى الصور من أمامي وتخرج صور أخرى، مستلقيا على الصخرة خيل لي أنني أقف الآن في منتصف القرية، تلك قطية أشعلوا النار فيها، وذاك رجلا تغتصب زوجته وبناته القاصرات امام عيناه، وتلك امرأة عجوز تربط الى شجرة النيم القديمة وترجم بالصخور ككلب

مسعور، يحيطون القرية بسياراتهم الضخمة، يتراكضون كالذئاب الجائعة، يحملون كل ما استطاعوا حمله، ويكسرون ما عجزوا عنه، لقد أكملوا مهمتهم بنجاح، ذبحوا من استكثروا فيه الرصاص وشنقوا من رفع عصا في وجوههم، لقد تركوا القرية رمادا وصخور، غادروا وارواح المساكين تلحقهم، تحفهم من كل جانب.

سقطت رشقات المطر على وجهي، كنت لا أزال مغمض العينان على تلك الصخرة، تنهدت بعمق ثم استكانت جوارحي ونمت، أو ربما مت.

قوم كنتقدر

استيقظت في خيمة تفوح منها رائحة المطهرات وأصوات خافتة تخترق جدرانها القماشية، كان الهواء كثيفاً مشبعا بالحرارة التي تلتصق بكل نفس تزفره الأرواح المتعبة، وكان جسدي يؤلمني بثقل لم أستطع التخلص منه تماماً.

لم أتذكر كيف وصلت إلى هذا المكان، لكني أتذكر بوضوح جثة الرجل النائمة في الطريق امامي وماء الشرب الحمراء في البئر والقطاطي المحروقة، والآن ها أنا ذا، ممدداً على سرير رقيق فيما أدركت لاحقا أنه معسكر طبي قرب مدينة المناقل وسط السودان.

من حولي، رأيت صفوفاً من الأسرة مليئة بأشخاص من جميع الأعمار، أطفال يتشبثون بأمهاتهم ونساء بعيون غائرة، رجال مسنين بدوا ضعفاء لا يستطيعون تحمل خطوة أخرى في هذه الرحلة من الحياة اليائسة، كان هناك أشخاص من جميع أنحاء السودان جرحى ومرضى، فاقدي أطراف، مصابون بالعمى، من يحملون شظايا على ظهورهم وأياديهم، ومن يحملون آخر ايامهم

في الدنيا ولكل منهم قصـــة رعب يرويها لنفســه قبل النوم ليلا.

غـاب صـــــخـب ولهو الأطفـال هنـا بـالرغم من أعدادهم الضــخمة، وحل محله الصـــراخ والألم، حتى أصـــغرهم بدت عليه علامات الشـــيخوخة المتأخرة، عظام متعبة وصدور ساعلة تلفظ الموت كل ساعة، وعيون شاخصة تنظر في المدى، كثير من أحزان الحياة ومصائبها.

كان المخيم نفســـه عبارة عن تجمع فوضـــوي من الخيام والملاجئ المؤقتـــة، عمـــال الهلال الأحمر يتنقلون بين الخيام ووجوههم متعبة من الســـهر والركض المتواصـــل لســـاعات وهم يحاولون انقاذ حياة من ظلت عزيمته ثابتة ولم تســـتسـلم، ويكفنون من رفع الراية مبكرا، الكثير من المعاناة والاحتياجات هنا وأيدي قليلة جدا لتلبيتها بل تكاد تكون معـدومـة مقـارنـة بـالأنوف التي تتزاحم حول الاوكســـجين، كانت ســـحب الغبار الكثيفة التي تثيرها اقدامهم المتعثرة تملأ الهواء وكأن الأرض نفســها قررت الحداد مقدما على من يموت بســـبب نقص كوادر الرعاية الصحية.

في فترة مع بعد انقضـــــاء الظهيرة التقيت بأحدهم، كنت أمد ســاقي عندما رأيت رجلاً جالسًــا تحت خيمة مهترئة

قدماه مبتورتان حتى أعلى ركبتيه، وجهه نحيفًا، وكانت عيناه يظللهم الحزن العميق بدلا من الرموش، ومع ذلك، بدا في سلام بطريقة لم أستطع فهمها.

- هل فقدتهم في حادث؟ سألته بينما انظر لساقيه.

نظر إلي بابتسامة باهتة وعيناه تتحرك معي اثناء جلوسي على الأرض قريبا منه.

قال مبتسما "لقد تركتهم في الخرطوم" صمت لفترة ثم أكمل مستدركا "فقدتهم اثناء دفاعي عن عائلتي."

جلست بجانبه، وعلى مدار الساعات القليلة التالية، حكي لي قصته، اسمه آدم، كان يعيش في الخرطوم مع زوجته وابنتيه وابنه الصغير، لقد كانوا حياته وعالمه بالكامل، عندما جاء الجنجويد، قاتلهم بكل ما لديه، فقتل عشرين منهم بسلاح آلي يملكه في محاولة يائسة للنجاة لكن العشرون منهم لم يكن عددا كافيا لهزيمتهم، كانوا كأسراب جراد، في النهاية تغلبوا عليه وأرسلوا عائلته الى حياة أخرى ليس عليهم القلق فيها على هذه الدنيا، والآن يجلس منفيا بلا قدمان في معسكر طبي يحدث رجل غريب مثلي.

انزلقت دمعة على خده الذي تسكنه التجاعيد والمآسي، همس مكملا قصته لقد أخذوا كل شيء. بيتي، عائلتي، ساقي... ولكن لم يتمكنوا من شرفي.

كانت عينا آدم، رغم التعب تحملان بريقًا شرسًا، شيئًا يكاد يكون تحديا لقد فقد كل شيء، ومع ذلك قد وجد طريقة للتصالح مع خسارته.

قال بهدوء: الآن، أعيش في ذكرياتهم. أحملهم معي أينما ذهبت.

لقد مر يومان، وأصبح آدم صديقي الوحيد في المخيم. ونصحني بالذهاب الى كسلا المدينة التي دفن فيها والدي قبل سبعة أعوام، الآن سوف اذهب إليها نازحا من شظايا الموت التي تتطاير في كل مكان هنا، سأجد عملا بلا شك في احدى المحلات التجارية أو ربما في قيادة الشاحنات او أي مهنة أخرى أستطيع بها الصمود حتى تنتهي هذه الحرب اللعينة واعود رفقة والدتي الى الكوة وبعدها تصبح الدهباية زوجتي بعد خمسة أعوام من الانتظار.

حثني آدم بصوته اللطيف والحازم. "لا تستسلم يا صديقي، الحياة لا ترحم الضعفاء".

في صباح اليوم التالي، أخذت بنصيحته. حزمت ما لدي من أمتعة قليلة وغادرت المخيم، متجهًا نحو الشرق، متمنيا له السلام فيما تبقى من عمره.

أخذنا الباص عبر طريق ضيق يمر بالقرى التي تحيط بالطريق الغربي الذي يربط مدينة ود مدني بمحلية المناقل وقراها الوادعة، قرى كانت نابضة بالحياة ذات يوم، والآن تمر العربة من خلالها مهجورة ومنهوبة، منازلها تُركت مثل الهياكل العظمية بلا لحم عليها أرض عارية شاسعة الفراغ، كان مشهد الجدران المكسورة والأبواب المشرعة بلا رقيب وممتلكات المواطنين المتناثرة على الأرض مخيفًا، شعرت وكأنني أسير عبر مقبرة قديمة نهض موتاها، مكان كان حيًا ذات يوم حتى مر به مرتزقة الشيطان.

اقتربنا من ود مدني عندما ظهرت لنا نقطة تفتيش تابعة للجنجويد من العدم، كان الرجال ذو الروائح الكريهة باردي الدماء وغير مبالين، عيونهم صغيرة وحادة كعيون الثعابين، وفي اللحظة التي رأوني فيها سحبوني من ياقة قميصي كاللص، اختاروني وحدي دون عن كل الناس في العربة، ذهبت توسلات النساء وبكاء الاطفال سدى وبلا أي جدوى، عصبوا عيناي ورميت كحقيبة

قديمة على سطح حديدي مستوي أظنه لأحدى سياراتهم وبعد مسير تخطى نصف ساعة تم سحبي مرة أخرى كحذاء قديم ونفيت في مبنى عرفت حين اعادوا لي بصري انه مدرسة قديمة في ود مدني، مدرسة تم تحويل فصولها الدراسية إلى زنازين احتجاز حيث كان الناس مثلي ـــ الذين تم القبض عليهم من نقاط التفتيش او الذين اقتيدوا من قراهم عاجزين تماما ـــ يرمون نظراتهم فيما بينهم في قلق دائم من المصير المحتوم.

كانت الرائحة القذرة نفاذة، مزيج من العرق والخرسانة الرطبة، والهواء مليئا بغمغمات الرعب والغضب المكبوت، نحن سودانيون أتخذونا رهائن من مليشيات يدعون انهم سودانيون في سبيل تحرير السودان من عدوا آخر هو الجيش السوداني، حياتنا أصبحت اكثر عبثا من حياة اسماك جف البحر وقدمها هدية للصيادين، في الحقيقة لم تكن هذه حرب تحرير، فالذي يتلقى الضربات هو المواطن البسيط ولا يوجد عدوا أكثر بغضا في قلوب هذا الشعب اكثر من هؤلاء المجرمين المتسلحين بالجبن وانعدام الشهامة، جمعينا في هذه المدرسة لم نكن أكثر من مجرد بضاعة رخيصة يطلبون ثمن مقابل بيعها.

قالوا لنا "مليار جنيه لأي أبلدة "، وجوههم خالية من أي تعبير، ألقوا الرقم كمن يطلب ثمن صندوق سجائر. حدقت فيهم، من أين أدفع هذا المبلغ؟، ان اقصى طموحاتي الآن أن أجد ما يسد رمقي.

تذكرت ما قاله لي آدم، تلك العبارة لا تزال عالقة في ذهني (لا تستسلم، الحياة لا ترحم الضعفاء) شعرت بغضب ونار تأكلني من الداخل بسبب هذا الظلم الذي بدا بلا نهاية، لم نكن مجرد رهائن في معسكر أو سجناء في زنزانة مؤقتة ـــ كنا ذكريات تتنفس، وأحلام لأشخاص آخرين يؤمنون أننا سننتصر ذات يوم.

وبينما كنت أجلس في الفصل المظلم، محاطًا بأشخاص آخرين فقدوا كل شيء، أخذت عهدًا صامتًا على نفسي أن أبقى على قيد الحياة وان لا اترك في نفسي مكان للهزيمة.

طالت أيام الاحتجاز، وكان كل يوم أشد قتامة وثقلاً من سابقه. فقد احتُجزنا لمدة أسبوع في مدرسة مهجورة تحولت رسميا إلى معتقل رهائن، تعرضنا لمعاملة وحشية تتحدى العقل وبدا أن الجنجويد يتلذذون بما نعانيه، يقيمون الرهانات فيما بينهم على من يموت أولا، يتبولون على ظهورنا ويطلقون علينا أسراب من النحل،

كانوا يضـــربوننا بأي شـــيء يقع في اياديهم، وأحذيتهم تنهال علينا بلا هوادة حتى أصـــبحنا بالكاد قادرين على الحركة، ويوضحون لنا في أكثر من مناسبة أن حياتنا لا تعني لهم شـيئاً. ولا أمل لنا في الفرار ما لم ندفع المبالغ المستحيلة التي يطلبونها.

في الغرفة المجاورة لي كان هناك جندي شـــاب بالكاد تخطى الخامســة والعشـرين، عيناه مسـكونتين بالإرهاق الذي يبدو أكثر مما يســتحقه عمره، اســمه إبراهيم في إحدى الأمســيات، بينما كنا نجلس في الظل الذي يرميه ضوء النهار الخافت عبر النافذة، أخبرني عن ابنه حديث الولادة، لم يكن قد حضـر مولده، بل علم في ميدان القتال بوصـــوله الى الحياة، وفي كل ليلة من الليال التالية كان يهمس لنفســـه عن الطريقة التي يحلم فيها بحمله بين ذراعيه والشـعور بنبض قلبه الصـغير وتقبيل جبهته ولو لمرة واحدة فقط، ثم يقع شـــهيدا او يموت في كمين لا يهمه.

كانت كلماته تحيط بها العبرة، مشبعة بالشوق لدرجة أنها ذكرتني بحياتي الخاصة خارج هذه الجدران - حياة أشعر أنها تصبح بعيدة بشكل متزايد، وكأنها حلم لن أعيشه مرة أخرى.

لقد اتخذ التعذيب هنا أشكالاً عديدة، كان معنا آخرون ـــ رجال مسنون ومراهقون، وفتيان لم يتجاوزوا السادسة عشرة من العمر، خطفوا جميعاً من بيوتهم وعائلاتهم، وعوملوا وكأنهم حيوانات متوحشة لا تستحق الرأفة، ولم ينجُ بعض الشباب الذين ضعفت قواهم، بعد أيام قضوها بلا طعام أو شراب وفي ضرب متواصل، كانوا يأخذونهم غفلة اثناء الليل، تُسحب أجسادهم من الزنازين دون أن يتركوا لهم فرصة للمقاومة، تاركين وراءهم مساحة فارغة حيث كان صراخهم يتردد صداه للمرة الأخيرة، وكل منا يخشى أن ينتظره ذات المصير.

بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا متمسكين بالحياة كانت مشاعر الانتقام تنمو مع كل يوم يمر، يغلي شعور الظلم في قلوبنا، يغذيه عذاب لم نظن يوما أن إنسان بكامل قواه العقلية يمارسه على إنسان آخر، ومع ذلك كنا خائفين دوماً، ولم يسمح لنا الجنجويد قط بالشعور ولو لوهلة بالأمان؛ كانوا يضحكون بأسنان صفراء متسخة ويذكروننا يومياً بأن الجيش تخلى عنا، وتركنا وحدنا ندافع عن أنفسنا ضدهم، وعلينا دفع الفدية او الانضمام راضخين لصفوفهم، ومع ذلك لم يفكر احد في الاقدام على ذلك، وفي احد الأيام شتمهم إبراهيم ووصفهم ب

"الجنجويد أولاد الضـــيف" وقال لهم كذلك "هنا في السـودان قبور تسـعكم جميعا" كان حديثه يسـرى في جسدي كالقشعريرة، انتصبت كل صوفة على راسي، لم يستطيعوا مجاراته بالحجة واللسـان فقرروا اسـكاته برصاصة ربما سكنت صدره او اعلى جبهته، لكنها لم تكن لتصـيب قلبه بالخوف، وهتفوا بعد ان اخمدوا عصيانه "دنيا زايلي شالت الخونة" ومؤكد أنه سيلتقي بطفله في الجنة.

في اليوم السابع، سحبني أحد جنود الجنجويد من الغرفة، كان قلبي يخفق بقوة والخوف يملأ معدتي، لكنه لم يأخذني إلى غرفة التعذيب كما ظننت بل إلى مكتب صـغير حيث أحد قاداتهم ينتظرني، ألقى أحدهم جهازاً لوحياً على الطاولة أمامي، وكان يعرض مقطع فيديو لي قبل القبض علي من قبل الجيش واقفا امام صيدلية اتحدث في نفاق عن تعدي قوات المخابرات العسكرية علي، لقد تذكرت هذا الفيديو.

ابتسم الرجل ذو العمامة الضخمة بسخرية، وكانت عيناه تلمعان بالحقد، قال ساخراً: أبلدة كذاب، انت تنفع معانا.

لقد عرضوا علي صفقة ـــــ الحرية، أو على الأقل الوهم بالحرية، في مقابل تكرار ذات التسجيل السابق لكن هذه

المرة أرادوا مني أن أرتدي ملابسهم وألف سحابة ضخمة من القماش مثلهم، وأسجل مقطع الفيديو وأشيد بهم فيه بصورة اكثر صدقا، وأزعم أنهم حماة الشعب، صانعي الديموقراطية، وإذا فعلت ما طلبوه، وعدني بالإفراج عني.

لم يكن أمامي خيار آخر مثلما لم يكن لي من قبل، كانت الكلمات تخرج من فمي مرة كالحنظل وأنا أرتدي زيهم العسكري الملطخ بالدماء وعرض الحرائر من بنات بلادي وأقفا أمام الكاميرا معتدلا أتلو الكذبات التي أطعموني إياها.

وبعد انتهاء التسجيل، لم يسمحوا لي بالمغادرة كما وعدوني، بل ألقوني في غرفة تزدحم بملابسهم المشرئبة بالأوساخ وجواربهم الممزقة، لقد جعلوني غسالا لهم، واتضح ان الإهانة جزاء أولئك الذين تخلوا عن كرامتهم من أجل البقاء في حياة تافه.

سلموني غرفة عليها جبل من الملابس، وأمروني بغسلها، قضيت أيامي التالية في غسل زيهم العسكري، وشعرت بعزيمتي تذبل مع كل ثانية تمر. لقد وعدت نفسي ذات يوم بأن هذا الكابوس سوف ينتهي، وعندما يحدث ذلك

فلن أنسى مثلما لن ينساه الآخرين، لسوف نحمل ما حدث هنا كتذكير بالقوة التي لم يتمكنوا أبداً من انتزاعها.

لقد جاءتني الخطة على شكل أجزاء، تشكلت في راسي اثناء مداومتي على غسل قذارتهم طوال أيام، تعلمت تقليد مشيتهم وطريقة كلامهم، والهتاف الذي يصدحون به بين الحين والآخر (جاهزية سرعة حسم)، والإيماء برؤوسهم أثناء محادثاتهم الغير مفهومة.

عندما سمعت مجموعة كانت تتناول الطعام تتناقش فيما بينها حول غارة صباحية على قرية قريبة من ود مدني، ترسخت الفكرة النهائية في ذهني، أدركت أنه إذا تمكنت من الاندماج في وسطهم ولو لفترة قصيرة، قد تكون هناك فرصة للهروب.

عند الصباح، ارتديت أحد الملابس التي غسلتها منذ مدة، القماش الخشن يخدش جلدي في تذكير حقير بكل ما يمثلونه هؤلاء الكلاب، دق قلبي بقوة وأنا أصعد إلى الجزء الخلفي من سيارتهم، الآن أنا أجلس وسط مجموعة منهم، الآن انا جنجويديا، مرتزق، كلب مال.

كنت مجبرا على تبادل الضحكات الجوفاء والإيماءات المنافقة لتجنب شكوكهم، الرجل الذي يجلس بجانبي

كانت له ندبة تمتد من حاجبه إلى ذقنه، ربت على كتفي وقال متوعدا، "الليلة تشوفي كيف نضبحا الهوانات دي، انت بس خليك قريب مني أي ابلدة فرا من جمبك فرغي فوكا". ابتسمت ابتسامة ضعيفة، رغم أن الغضب والاشمئزاز كانا يقيمان احتفالا في داخلي.

كانت الرحلة إلى القرية أشبه بالمرور على حبل رفيع اسفله حفرة من جحيم، أفكاري تصادم بعضها وأنا أستعرض عقليًا كل تفاصيل خطة هروبي، وعندما وصلنا أخيرًا غرقت أي تخيلات رسمتها للهرب في الرعب الذي يحدث امامي، هاجم الجنجويد القرية مثل الحيوانات المفترسة، ركلوا الأبواب ثم سحبوا الرجال من منازلهم، وضربوهم حتى افقدوا الوعي بعض منهم، والبعض افقدوه حياته، بينما كانوا يصرخون (الله اكبر، الله اكبر) وصاروا يجمعون مقتنيات المنازل، أواني زجاجية، دراجات هوائية ودمى أطفال، ثم أموال وذهب، كسروا حتى مخازن الذرة لقد نهبوا كل منزل بكفاءة لصوص، بينما استمروا في التنكيل بالمواطنين، كانت عيونهم تتوهج بغريزة حيوانية وتتغذى على الخوف الذي يسبق دخولهم الى كل مكان، بينما ظللت أنا على العربة اراقبهم مقهورا يستبيحون كل شيء.

لقد شاهدتهم بعجز وهم يقتحمون المنازل البسيطة، ينتهكون الأعراض ويفزعون الآمنين، رأيت إحدى النساء تقاوم فضربها مرتزق ما على وجهها، فتركت يده ندبة حمراء موضع ضربته هوت بها على الأرض، صراخ الأطفال لا يزيدهم الا جوعا للمزيد، لا تصدهم توسلات النساء او الرجال المقهورين، كانت كل غريزة في جسدي تصرخ لتوقيفهم، لمنعهم، لكنني كنت أعلم أنه إذا تدخلت الآن، ستضيع فرصتي الوحيدة للنجاة.

عرفت حينها انني مجرد جبان ليس الا، ربما لم اعرف كيف استخدم سلاحا، لكن العشرات الذين ماتوا من شباب القرية علموني درسا مفاده أن النضال لا يحتاج الا قلبا شريفا، وان الدفاع عن العرض يجعل من الرجل الأعزل أخطر الأسلحة.

بحلول الظهيرة، كانت الشمس تشرق بثقلها في السماء، ورائحة العرق والدم تملأ الهواء من حولنا، أخذوا ما أخذوا ثم حملوا مسروقاتهم على السيارات السريعة وانطلقنا عائدين الى المدينة، انا اجلس الآن على جبل من الملابس وأجهزة التلفاز وأدوات كهربائية أخرى ومقتنيات قرويين ليس لهم ذنب.

اعتقدت أن الأســـوأ قد مر، وربما أملك الآن وقتا كافية للهرب فســـرعة الســـيارات مناســـبة للقفز في زقاق ما أستطيع الركض منه نحو منزل مهجور أقلع هذه الملابس النجســـة والتواري عن الأنظار حتى الليل، ولكن في تلك اللحظة شق صوت المحركات الصاخبة السماء، رفعت رأسـي فإذا بها طائرة حربية ظلالها الداكنة حجبت اشعة الشـــمس الســـاطعة لأجزاء من الوقت، لم يكن لـدى الجنجويد الوقت الكافي للتصـرف، وهذا أسـوأ سـيناريو ربما قد تنتهي عليه حياتي، أن أموت وانا فردا من هؤلاء المجرمين.

اندلعت الفوضـى، قفز معظمهم من السيارات يصـرخون، وقفزت معهم، حـل الـذعر محـل شـــجـاعتهم، ركض بعضـــهم، ووجه آخرون اســـلحتهم نحو الســـماء، كانت طلقاتهم اليائسة غير كافية لمنع ما حدث.

صـــوت فرقعة مدويا أصـــابنا، ثم ســـكون تام، لم اشـــعر بشـــيء ســـوى صـــوت أحدهم من بين الغبار الكثيف الذي يعلو من حولنا يقول. (قوم كنتقدر، عبدو قوم كنتقدر) لم ينجو ســـوى ثلاثة منا، ســـقط الجميع وتدفقت مســـروقاتهم كحجارة مقابر، أجســـادهم ملطخة بالدم والتراب، ملقيون في الأرض كطيور ضـــربتها عاصـــفة شـــمســـية، لقد لقوا

حتفهم في ختـام يليق بجرائمهم، ذهبوا لملاقـاة ربهم وهم عائدون من مشـــوار قصـــير نكلوا فيه بالعشـــرات من الأبرياء.

اما انا فقد كتب الله لي عمرا جديدا، لم يصـــيبني شـــيء ســوى اختلال خفيف أصــاب اذني اليســرى، اما الاثنان الذين معي فقد انغرزت شـظية على سـاق أحدهم والثاني كان سليما، وقد تكفل بأن يسند رفيقه الأعرج، كانت هذه فرصــتي المناسـبة لأسـتعيد شـيئا من رجولتي التي ربما نسـيتها في زنازين المدرسـة، أخذت سـكينا كانت معلقة على خصـــر احدى الجنجويد الذين لقوا حتفهم قبل قليل ووضعتها على خصري وسرت سريعا حتى لحقت بهم، اقترحت عليهم أن نســتريح قليلا تحت احدى الأشـــجار حتى نطمئن على عدم عودة الطيران خلفنـا مرة أخرى، وافقاني على الفور وبعد خمسـون خطوة او اقل وقفنا الى شجرة هشاب بجانب الطريق الترابي وجلسنا.

بينما كان الرجل المصـاب يئن ككلب مسعور يلفظ روحه الســابعة انشـــغل رفيقه الآخر في محاولة التخفيف عليه بربط سـاقه من اعلى موضـع الجرح غرسـت السكين في صـــدره مباشـــرة وعيناه الجاحظتان مصـــدومتان، اذقته رشـــفة من كأس ســـقى منها المئات، بينما الجريح بدأ

بالزحف يائسا مني، يا لتمسكه بالحياة، كان يردد متوسلا (ما تكتلني، وااي، انا مجروح) رأيت في وجهه الجثة المحروقة قرب القرية، والمرأة مبتورة اليد عند البئر، لم يكن صوته الذي يصرخ ويستغيث بل كان صوت النساء التي نكلوا بهن قبل قليل في القرية، وسمعت آدم يخبرني أنه احد الناجين من العشـــرون الذين قتلهم في الخرطوم وانه هو الذي قتل له أسرته وبتر له ساقاه، أمسكت يديه اللتان ترجفان في يأس، كتمت صــــرخاته وأرحته من معاناته، وجدت السكين طريقها في وسط صدره الذي يكتنز عشـــرات التمائم بلا جدوى، لقد غادر الرجل هذه الحياة الى حياة أخرى يجد فيها العشـــرات في انتظاره حتى يقتلوه مرة أخرى والى الأبد.

جبل التاكا

اختفى ضجيج الطائرات اخيرا وتبقي الصدى المتصاعد نحو التلاشي في أذني اليسرى، جسدي يتحرك بلا وعي وقلبي ينبض كطبول تنشد الناس لحرب في العصور الوسطى، الرجلين الذين قتلتهم سوف يكونون عشاء دسما للسباع هذه الليلة، لوهلة شعرت برضا قاتم، كل خطوة كنت أخطوها على الأرض الترابية الوعرة كانت تعيد لي صوت صراخهم متوسلين العفو وصوت نفاذ السكين بصدريهم ذكرى ثقيلة تتدفق كمياه الشلال في عروقي.

رحت أتسلل بين الأشجار وبقايا المزارع المهجورة أبحث عن مسار يقودني بعيدًا من هذه الأنحاء، لقد مر كلاب الموت من هنا، فها هو أثر إطارات سياراتهم لم يمحوه الهواء الخفيف او تعاقب الأيام، تركوا الأراضي المأهولة بحياة الفلاحين والمروج الخضراء اليانعة عبارة عن فراغ يتنفس عبق الموت، رحل المزارعون من هنا، والرعاة، اخذوا كلابهم وخرافهم بعيدا من الشياطين التي توسوس بالقتل في صدورهم.

كانت الشــــمس قد انحدرت خلف الأفق، والظلام يزحف ببطء على الأشـجار المترامية وسـط الحشـائش، وفيما أنا أتلمس طريقي لاحت لي من بعيد في عتمة المساء الأولى مجموعة من الظلال المتحركة، اقتربت بحذر، ثم سمعت همسات خافتة وأصوات أطفال مختلطة ببكاء مكتوم.

كـانـت هنـاك أُمٌّ تحمـل طفلهـا على كتفهـا الأيمن وطفلان يسـيران بجانبها بأجسـاد واهنة متعبة ومخاوف مرسـومة على ملامحهم، بينمـا الأب كـان يتقـدم بخطوات مثقلـة، عينـاه تبحثـان في الظلام كمن يتوقع خطرًا قـادمًا من كل الجهات.

حـاولـت ألا أفـاجئهم، فخرجـت ببطء ورفعـت يديّ لأُظهر لهم أنني لست قاطع طريق، او عدو لهم.

"الســـــلام عليكم ... انتم من أي قريـة، انـا طلعـت من ود مدني."

نظروا إليّ بعيون متوجســــــة، لكن الأم بـادرت بنظرة تعاطف، وكأنّها ترى في تعبي وجوهاً كثيرة عرفتها.

الأب سألني: "من أين أتيت؟ هل أنت عسكري؟"

أخبرتهم قصتي سريعًا، دون الغوص في تفاصيل الحادثة الأخيرة لربما يخافون مني، وذكرت أنني هربت من المدرسة فقط. وعندما انتهيت، أخبرني الأب بأن قريتهم دُمِّرت بالكامل، أومأ برأسه نحو زوجته وأولاده وقال: "لم يبقَ لنا شيء. كل ما نملكه هو هذه الثياب على أجسادنا، وبعض الطعام البسيط الذي أخفيناه قبل فرارنا."

سرت معهم طوال الليل، وعرفت المزيد عن مأساة عائلتهم، تحدّث الأب بلهجة حزينة وهو يصف لي مشهد حرق منزلهم، حيث كانوا يشاهدون كل ما صنعوه ينهار أمام أعينهم بطرفة عين، حدّثني عن أصدقائه وجيرانه الذين فقدوا أرواحهم وهم يحاولون الدفاع عن منازلهم، وكيف أن الناجين منهم إما هربوا أو وقعوا ضحايا لهذه الكلاب المتوحشة.

أما الأم، فقد ظلّت تتحدث مع طفليها لتهدئة مخاوفهم، في كل مرة كانت تقول لهم: "سنصل إلى مكان آمن قريباً، وسنجد من يساعدنا." ورغم كل شيء، كانت كلماتها تحمل نبرة أمل، وكأنها تحاول أن تزرع لهم زهرة أمان في وسط هذا الجحيم.

استمررنا في السير حتى بدأ التعب يسلبنا قوتنا. أخيرًا، قررنا أن نتوقف ونبحث عن مأوى مؤقت. وجدنا ربوة

ترابية بعيدا عن عيون الطريق الذي يشق الأراضي الزراعية فاسترحنا اليها وامتزجت مشاعرنا، بين الراحة المؤقتة والخوف من مستقبل مجهول.

في الصباح التالي، استكشف الأب الأرض المحيطة بنا، وعاد بفراسة أبناء الجزيرة كما سمعت عنهم ليخبرنا اننا قريبون من مدينة ود الحداد، رغم سماعي هذا الاسم لأول مرة منه لكنني لمست الراحة في نبرته المطمئنة لزوجته واطفاله.

تحت شمس الصباح العاتية قطعنا شوطا طويلا من السير على اقدامنا، يكاد التعب يقضي علينا نيابة عن الجنجويد، لكن الغضب المتوهج في عينيّ الرجل كان يكفي ليشحنه بطاقة لا تنطفئ. كان الأب يجرّنا بخطوات ثابتة نحو الشرق فيما عرفت اننا دخلنا الى حدود ولاية سنار.

رغم الوجع البادي في كل حركة كان الرجل صلبا مبتسما، وكأن حمله لأطفاله ومرارة فقدانه لمنزله أشعلت في قلبه بركانًا لا يهدأ من الشجاعة. بدأ يتحدث معي بصوت منخفض، صوت مشحون بالمرارة والغضب، قال:

"أتعرف، يا بني، نحن لسنا سوى قطع شطرنج في أيديهم. حروبهم هذه... ليست لنا، ولا من أجلنا، إنها لأجل كراسيهم وفتات السلطة الذي يلهثون وراءه، بينما يتركوننا نتضور جوعاً ونغرق في دماء بعضنا البعض."

هز رأسه بأسى، ثم تابع بصوت أثقل:

"كلما نظرت إلى أولادي، أدركت أن كل ما نمر به عبث. كيف اشرح لهؤلاء الأطفال ان لا ذنب لهم في هذه الحرب اللعينة، كيف امنحهم الراحة من هذا الجحيم الذي ألقونا فيه."

نظرت إليه وحاولت مواساته: "أعتقد أن هناك فرصة. ربما تتوقف الحرب قريباً... لابد أن هذا الجنون سينتهي."

لكنه أطلق ضحكة مُرة، كمن يعرف عمق هذا الوجع أكثر مني. "إن كان السياسيون يريدون وقف الحرب، لكانوا أوقفوها منذ زمن بعيد، فكما ترى هي فرصة لكسب أراض جديدة في الساحة السياسية وكذلك فرصة أخرى لتمكينهم. لكنّ السلطة... القوة... إنها لعنة على كل من يتشبث بها. ونحن في النهاية من يدفع الثمن."

أومأت برأسي موافقا، وأنا أشعر بثقل كلماته يتسرب إلى أعماقي. رغم رغبتي في التمسك بالأمل الزائف الذي نراه في كل لحظة ضعف تعصف بنا، كانت كلماته كالسيف الحاد تقطع هذا الأمل وتحيله إلى شظايا. أكملنا الرحلة في صمت متوتر، أصداء كلماته تتردد في ذهني وتدفعني إلى التساؤل عن جدوى كل شيء.

حين أعلنت الجهات الإعلامية بداية الحرب، هتف الكثيرون وانا منهم بأن النصر سوف يكون حليفا لنا، والقصد هنا لقوات الشعب المسلحة، لكن فيما اتضح ان هنالك مئات الدوافع والأسباب والمشاركون في هذه المجازر والابادة الجماعية لمصالحهم، كيانات سياسية، تكتلات حزبية، قبائل، دول، وبالطبع مئات المرتزقة الطامعين خلف المال، ليس مهما لدى الكثيرين معرفة المحرك الأساسي للحرب والمستفيد الأكبر من وراء اشعالها، فالناس البسطاء مثلنا جل ما نحلم به هو عيش حياتنا التي أصبحت رخيصة، معلقة على رصاصة طائشة، ان لا نفقد عزيز علينا في صراع لا يشملنا اقتسام غنائمه، لكن ولأن للجيش طرقه وقوانينه فهو أدرى بخبايا الحروب اكثر من الشعب المكلوم، ورغم

الاتهامات بالتقصير التي نلقيها عليه لكننا ندرك تماما ان اعتى الجيوش لا يمكنها هزيمة عدو لا تعلم منابعه.

بعد ساعات من السير الطويل، بدأت معالم المنطقة تظهر أمامنا.

كانت "ود الحداد" لا تختلف كثيرا عن مناطق السودان المألوفة ذات البنية التحتية البسيطة وبشاشة سكانها، استقبلنا الأهالي بالتكبيرات والكرم الذي تجده في كل بقاع السودان، أبصرت العلم الوطني يرفرف شامخا، ورجال الجيش يقفون على مشارف المدخل الغربي للمدينة والمتكتل بالمدافع والرشاشات والأسلحة الثقيلة، كان المكان يعج بالناس؛ اطفال استقبلونا بوجوه باسمة، وجنود ساعدونا في الوصول إلى مأوى مؤقت.

وفي وسط هذا الحشد، التقطت عيناي وجهًا أعرفه، رجل عجوز لم أنسى ملامحه قط، مُتعب لكنه يحمل في عينيه نورًا من الحكمة والقوة، كان يرتدي زي القوات المسلحة الأخضر ذو البقع الداكنة، حليق الشعر، أسرعت إليه بلهفة طفل، ورأى الدهشة في عينيّ.

ابتسم الحاج عبد الله ابتسامة مشوبة بالحزن والحنين، ثم ربت على كتفي وقال:

"حمداً لله أنك بخير يا بني. لقد خفت أن تبتلعك هذه الحرب."

تعانقنا بحرارة، ثم جلسنا الى شجرة طلح أمام خيمة للجيش حيث كانت خدمته ضمن جنود حراسة الطريق.

تبادلنا بعض الكلمات، قصصنا فيها على بعضنا البعض ما مررنا به منذ لقائنا الأخير، أخبرني هو عن رحلة استنفاره وتدريبه طوال خمسة واربعون يوما، عن تنقلاته العديدة في ربوع السودان وعن المعارك الثلاثة التي خاضها بقلب صبور، وبدوري حدثته عن قرية والدي التي احالها مرتزقة الجنجويد الى رماد وحجار متفحمة، عن المرأة مبتورة اليد في البئر، والرجل متحلل الجثة في مدخل القرية، عن الملائكة التي انقذتني ونقلتني الى مخيم الهلال الأحمر في المناقل، عن مشهد النساء الجرحى والاطفال الباكين؛ أصواتهم لا تزال عالقة في أذني، ترنّ كطيف من الألم لا ينتهي، عن الهروب من براثن الموت بعد قتلي لأثنين من الجنجويد، حدثته عن كل ما رأيته، وشاركته تفاصيل رحلتي مع هذه العائلة التي حالفها الحظ بالنجاة وعن مئات العائلات الأخرى التي لقت نحبها دون ان يشعر بوجودهم احد في هذه الحياة، وما خلّفه ذلك في نفسي من مزيج عجيب بالرضا

المرّ والنقمة، كان يستمع بصمت وادب الحكماء، رأيت في عينيه تعاطفًا وخبرة رجل أدرك أن مصيرنا لم يعد بيدنا بعد الآن.

الحاج عبد الله كان بمثابة بوصلة تذكّرني أن الأمان قد يكون مؤقتًا مهما اعتدنا على مشاعر الاطمئنان فيه، وأن هذا المكان، رغم أمانه، ليس سوى محطة في رحلة طويلة قد لا تنتهي إلا بنهاية هذه الحرب الساخطة نفسها.

سألته:

"هل عادت شبكة الاتصالات؟

مر وقت طويل، اريد الاطمئنان على والدتي في الجزيرة أبا وعلى الدهباية... أخشى عليهم ما قد يكون أصابهم من خوف وقلق علي، فبالطبع سوف يكونوا قد سمعوا بما حدث في ام جديان من خراب ودمار."

هز الحاج عبد الله رأسه بأسف:

"للأسف، يا ولدي، الاتصالات لا تزال مقطوعة في كثير من المناطق. الحرب لم تترك لاحد حق التواصل مع أحبابه."

زفرت بأسى، وبدا القلق يجتاحني أكثر، والدتي مريضة بالسكر، وقلقي يلتهمني خوفًا من أن يكون أصابها مكروه. أما الدهباية، خطيبتي، فهي كل ما يربطني بحلم العودة إلى حياة طبيعية، بعد كل ما رأيته خلال هذه الرحلة المجنونة.

نظر إليّ الحاج عبد الله بمزيج من التعاطف والتفهم، قائلا: "إلى أين وجهتك الآن؟"

"مسافر إلى كسلا، سمعت أنها أكثر أمانًا، وهناك ربما قد أتمكن من إيجاد وسيلة للاتصال بأهلي."

ابتسم وقال بصوت هادئ: "لا تقلق يا ولدي. أعرف مجموعة من الأسر التي ستتوجه إلى كسلا عبر سيارات تم ارسالها لنا من السعودية يمكنك الانضمام إليهم، وستجد طريقة للوصول بسلام بإذن الله."

تنفست الصعداء، لاح في الأفق خيط من الأمل، ولو كان هشًا ضعيفا، نظر الحاج عبد الله إليّ مطوّلاً ثم قال: "ما مررت به يا ولدي كفيل بأن يبدّل أعماقك. لكن رغم كل شيء، الحرب ليست سوى غيمة سوداء ستمرّ، والأهم أن تبقى أنت كما أنت، بثباتك ونقاء قلبك، لا تسمح للمتغيرات بأن تهز ثوابتك."

هززت رأسـي موافقًا، ولكني لم أتمالك نفسـي عن ترديد كلماتي عن الذين تسبّبوا في هذا الجحيم.

"أحلم بيوم ينتصـر فيه الجيش وتتم محاسـبة هؤلاء الجنجويد ومن ساعدهم من السياسيين والمتعاونين وحتى الصـامتين عن عربدتهم في أرواح الأبرياء، كنت أتمنى أنني قتلت الأستاذ حسين في الكوة قبل مغادرتي بدلاً من الاثنين الذين تركتهم في العراء قبل أيام، فلم يكن ليتجرأ أي عدو في الدخول الى مدينة آمنة ويروع أهلها دون مسـاعدة من خونة مثله، وما أكثر الخونة في بلادنا اليوم."

مسـح الحاج عبد الله على كتفي بلطف وقال: "الحق سـيظهر يومًا ما، ولكل خائن نهاية، المهم ألا تحيد أنت عن طريق الحق، ولا تجعل هذا الغضب يستهلكك، فكما تراني فقدت اسرتي وبيتي، ووجدت الاستنفار في الجيش وسيلة للتعبير عن نفسي."

قبل أن أنهي حديثي معه، أخرج هاتفًا قديمًا من جيبه، وقال لي بابتسامة متفائلة:

"خذ هذا الهاتف، إذا وصلت إلى كسلا، ستجد هناك شبكة ما أو إشارة، وستتمكن من الاطمئنان على أهلك."

شعرت بشيء من الامتنان يغمرني وأنا أمد يدي متناول الهاتف.

ودّعني الحاج عبد الله بعد أن دعا لي بالسلامة، لمست في صوته وداعا حارا كمن يوشك ان يدخل الى حتفه، ثم قال لي بينما اصعد الى العربة: "لا تنسى دعواتك لي بالرحمة والمغفرة، سوف نتحرك الى مناطق العمليات غدا، لا أدري ان كان لي نصيب معركة اخرى."

أجبته باسما رغم الغصة التي تخنق صوتي:

"كان حيين بنتلاقى".

كانت العربة قد تحركت، لكني تعلمت من هذا اللقاء أنني لست وحدي في هذه الحرب، وأن ما يربطنا كشعب أقوى من كل هذا الدمار.

المتاهة

استغرقت السيارة عشرة ساعات حتى وقفت في السوق الشعبي بمدينة كسلا، حيث مرت بمدينة سنار، ثم السوكي، ثم توقفت بمدينة الحواتة أول مدن ولاية القضارف ثم أكملت رحلتها عبر قرى شرق القضارف حتى مدينة كسلا.

نزلت من العربة ولم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان توجهي سوى محاولة البحث عن مكان تتوفر به شبكة اتصال ما، وبعد بحث مضن اخبرني بائع سجائر متجول اسمه علي التشادي أن شبكة الاتصال لا تزال خارج الخدمة في معظم مدن وولايات السودان، وان الوسيلة البديلة هي عبر الانترنت الفضائي، قررت ان اعثر على مسكن لي، شارف الفجر على البزوغ وما زلت هائما بين القهاوي التي تزدحم بالشباب والرجال العاطلين عن العمل والمترقبين انقضاء الحرب حتى يعودوا الى حياتهم.

تناولت كوب قهوة ذو مذاق سيء من رجل أشعث الشعر، جميع من يجلس في قهوته المترامية حول شجرة نيم ضخمة يناديه ب(أدروب)، سنحت لي الفرصة وسألته عن سكن لمعلمين في المدينة ودلني على مكان شرق السوق، قضيت ما تبقى من الليل نائما في مسجد مجاور لشجرة النيم وفي الصباح انطلقت نحوه.

الشاب الذي فتح لي الباب كان أيضا ذو شعر أشعث كثيف، استقباله الحار لي ذكرني ان السودان مهما تعددت عرقياته فكل شعبه اهل وما هذه الحرب الا نزوة شيطانية مجردة من أي قضية مهما اجتهدوا في الترويج لها.

اسمه محمد ولقبه بزيانوس، معلم جغرافيا كان يدرس طلاب مدرسة كسلا الثانوية والآن بسبب الحرب توقفت الدراسة ويعمل في شركة توريد اجنبية.

تمكنت بمساعدته من الولوج الى الانترنت من خلال الهاتف الذي منحني إياه الحاج عبد الله، أرسلت رسائلي للدهباية على امل ان تجدها ذات يوم، ثم انطلقت باحثا عن عمل في رحاب المدينة.

اصطدمت بالواقع الذي جئت اليه، لم يكن من السهل العثور على أي عمل، جل وقتي في الأيام التسعة التي

تلت قضيتها في قهوة أدروب والتجوال في كامل المدينة، لم اترك حتى علي التشادي من سؤاله، وفي أحيانا قليلة كان بزيانوس يجالسني في القهوة مطمئنا على حالي، ولأنه يكره أحاديث الجالسين وفلسفاتهم بشأن الحرب لا يطيل الجلوس هناك.

وفي اليوم العاشر حصلت على اول عمل لي، حيث تمكنت رفقة بعض الشباب من تفريغ حمولة سيارة ضخمة من الدقيق المرسل من قبل السعوديون والقطريون في مستودع ما وحصلت على اول خمسون ألف من الجنيهات.

لم أكن بحاجة ماسة للمال، ففي السكن رفقة بزيانوس كانت وزارة التربية ترسل ما يكفي من المعونة الشهرية، وحتى علي التشادي كان شهما معي.

استمرت حياتي على ذات المنوال، اخرج في أيام عشوائية لمهمة تحميل او تفريغ واحيانا اعمل مساعدا لبعض فنيي الكهرباء واعود في المساء استمع لأحاديث الرجال في قهوة ادروب، حيث يفسرون الحرب وأهدافها كما يشاؤون، وفي احدى الليالي لمحت وجها مألوفا لدي، رجل كهل ربما تخطى الخمسون واعتلت التجاعيد

ملامحه، ظل يتحدث بفكر مســـتقيم عن مشـــروع دولة النهر والبحر وعن التقسيم المرتقب للسودان مرة أخرى.

حديثه لم يخيفني فيه مسـألة الانفصـال التي لاقت رواجا واسـعا لدى السـياسـيون الجدد على الانترنت، بل حديثه حول تهجير القرى بدون تدخل للجيش لمنع ذلك، حيث ذكر أن الهجوم على المدن والولايات في وسط السودان ليس الا محاولة لتهجير ســكانها نحو الشــمال ما يجعل مناطقهم مستعدة تماما لاستقبال المواطنون الجدد والذين سيصوتون للانفصال لاحقا في حالة الاحتكام للتصويت بشأن الانفصال كما حدث لجنوب السودان.

كان الناس يســتمعون اليه في اذعان وانتباه غريب، يطرحون عليه اسـئلتهم ويسـتشـيرونه في كل تفاصـيل الحرب، انا لم اكن احب المشـاركة في نقاشـاتهم، اسـتمع من مســافة آمنة تجعلني خارج اطار مجلســهم المزدحم، وذات يوم بينما كان الرجل يلقى عباراته الرنانة توقفت ســيارة ســوداء وفي لمح البصــر قفز رجلين يرتديان ملابس سوداء، أجسـادهم من فرط ضـخامتها تكاد تمزق القماش الملتصق بها ودون أي سابق انذار تناولا الرجل كدمية طفل ورموه في السـيارة وانطلقوا، كان الحضـور قد ابتعد متبعثرا من المكان وبعد عودتهم خيم الصــمت

مطولا وقرر حينها أدروب ان يغلق قهوة النيمة لحين اشعار آخر.

لم يكن لي متنفس آخر، قضيت ثلاثة أيام بين العمل والمنزل ويتخلل طريقي أحيانا المسامرة لوقت قليل رفقة علي التشادي حتى اخبرني قبل يومان أن ذلك العجوز قبض عليه من قبل جهاز المخابرات وانه احد المتعاونين من الجنجويد، لم استريح ابدا لذلك الرجل وحديثه المرتب بصورة غريبة، يذكرني تماما بالأستاذ حسين، ليتني قتلته قبل مغادرتي الكوة.

أصبحت ايامي ثقيلة، اخبار الموت تخيم في كل مكان، آلة الجنجويد تدور رحاها في الآمنين والابرياء دون أي تدخل أجنبي ممن كانوا ينادون بحقوق الانسان، كل ما أراه في عالم الانترنت عبارة عن غوغاء فارغة، مجرد بيانات خجولة من دول كانت تفرض علينا العقوبات بحجج واهية وسياسيون تصدروا المشهد باسم الشعب السوداني، يجوبون قاعات باريس وفنادق لندن، يقيمون المؤتمرات والندوات في كينيا واثيوبيا ومخرجاتهم عبارة عن ادانات واسعة للجيش دون أن يعبرون عن سخطهم لما تفعله مليشيا الجنجويد من قتل وتشريد وتهجير ممنهج.

لم تصلني أي اخبار عن والدتي والدهباية، اخرج صباحا اجوب القهاوي في أسواق المدينة، استمع لأحاديث الناس المتكررة حول الحرب والجنجويد والكيزان، وفي اخر الليل أعود الى فراشي محملا بذكريات مؤلمة حول العشرات الذين قابلتهم في ليالي الاعتقال بود مدني، اسمع صراخ الأطفال في المخيم الطبي طوال الليل حتى استغرق في المنام، واحلامي عبارة عن فوهة سلاح موجهة في راسي بينما يخربون بيتنا في الكوة، استيقظ بعد كابوس مريع أرى فيه الرجلين الذين قتلتهم اثناء هروبي من الجنجويد، اعود لمحاولة النوم متذكرا كيف كان ميشو يلهو امامي على كورنيش النيل الأبيض في الكوة، وخلال هذا الكم من المعارك في رأسي يطل سؤال في رأسي "متى ينتهي كل هذا" وحتى في حالة توقفت الحرب، كيف يعيش الناس دون أسرهم، أطفالهم، بل أين يعيشون وقد استعمرت بيوتهم وقراهم، صديقي العزيز آدم كيف يعود انسان طبيعيا دون عقد او مخاوف بلا ساقين، وحيدا في منزل تسكنه اشباح اسرته، الحاج عبد الله ترى اذا كتب له عمر جديد بعد الحرب، هل يعود الى زالنجي ليعيش مع أصوات افراد اسرته الأربعة بين الجدران الخربة؟.

مر شهرين منذ ان أرسلت رسائلي الى الدهابية ولا جديد يذكر، حصلت على عمل ثابت مساعدة علي التشادي، حيث التاجر الذي يمده بالسجائر احتاج لمن يعمل لصالحه في محل جديد قد افتتحه قرب مستشفى مدينة كسلا، صديقي بزيانوس غادر الى السعودية ليلتحق بفرع الشركة الرئيسي هناك في مدينة الرياض وظل على تواصل دائم معي في كل مرة اتصل بالانترنت.

ثلاثة عشر يوما في عملي الجديد، تمر علي عشرات القصص الناجية من مواطن الحرب، فاقدي أطراف، إصابات دائمة، أطفال، نساء، شباب، رجال، كل الأعمار، استمع لمعاناتهم يوميا، حين يشترون السجائر وصناديق البسكويت، فتيات تعرضن للاعتداء عشرات المرات، رجال اجبروا على مشاهدة نسائهم يتعرضون للاعتداء عشرات المرات، حكايات لا تصدقها أذن، ومشاهد لم تراها أعين، ربما لست ميالا للعنف وأرى مهمتي في التعليم اكثر من الانخراط في صفوف الجيش لكني افكر كل يوم عن كم الفرص التي سنحت لي في حمل السلاح وأداء مسؤوليتي كرجل ولم استغلها، ما زلت أتذكر الحاج عبد الله الذي تخطى السبعون من عمره وقد جاء من اقصى الغرب حتى ينضم للقتال، بينما انا

بدوري تركت دياري هاربا منهم نحو الشـرق جالسـا في كشك سجائر افخر بهروبي من قبضتهم.

في المســاء قبل ان اغلق الهاتف اســتعدادا لرحلة النوم الشاقة وصلتني رسالة من الدهباية، كنت قد أرسلت أكثر من ثلاثون رســالة لها على مدى شــهور، ســألتها عن والدتي وعن حالها واخوتها، وقد اكتفت برســالة واحدة، رسالة من خمسة كلمات "البقاء لله حاجة التومة اتوفت".

أمي ماتت.

إلى حين قريب

ثلاثة ليال مرت بطيئة كسـلحفاء مبتورة الاقدام تزحف على صحراء رملية، اسودت الدنيا في وجهي، اشعر اني الآن لا املك سببا للحياة، لا فائدة لوجودي بعد الآن، ابي كان قد توفى هنا في هذه المدينة قبل سـبعة أعوام ولم احظى قبلها برؤيته طوال خمسـة اشـهر، رحل بسـبب حادث مروري بين الشـاحنة التي كان يقودها وشـاحنة أخرى بجانب الطريق، اما الآن فأمي رحلت ولم احظى طوال سـتة اشـهر برؤيتها او سـماع صـوتها، ذكرت الدهباية انها حزنت بسـبب ما حدث في قرية ام جديان ظنا منها أنني من ضـمن المقتولين في تلك المجزرة، ما رفع من مسـتوى السـكر لديها والذي أدى لوفاتها، لقد تسـبب الجنجويد بقتل أمي، حاجة التومة التي افنت عمرها في حمايتي ورعايتي حتى أصبحت رجلا، ماتت بسـبب فشـلي في رعايتها، ترى كم عدد الذين قتلهم الجنجويد برصـاصـهم؟ والذين قتلهم بتعذيبهم؟ والذين

قتلهم بخوفهم على أبنائهم؟ .. مؤكد لا حصـــر لهم، الآن اصبح الأمر شخصيا، لم تعد هذه الحرب بين قوة متمردة و الجيش، أصـبحت حرب وجود، كبر الشـقاق بيننا من منزلة الخصومة الى منزلة العداء.

صـار جليا لما جاء الحاج عبد الله من زالنجي للاسـتنفار في صـفوف الجيش، ولما اسـتشـهد الجندي إبراهيم في المدرســة الثانوية دون ان يفكر في طفله المولود حديثا، وما أنا متأكد منه أن من لم تحركه الوطنية لقتال هؤلاء المرتزقة، دفعته نار الانتقام.

كان علي التشــادي اول من قدم لي العزاء، ثم ادروب، والرجل الذي عملت لديه في كشـك السـجائر، وصـديقي بزيانوس وبعض الذين التقيت بهم في قهوة النيمة، لم يطيلوا المكوث معي، لديهم واجب عزاء في حي آخر، هنا سـرادق الوفيات اكثر من المتسـولين وبائعي التجزئة المتجولون، يتطوع الشباب من أبناء المنطقة بالعمل دوام كامل في المقابر، وسـيارات نقل الجثامين تطوف الطرقات اكثر من الأطفال، اعتاد الناس على الموت، اصبح بالنسبة لهم امر لا يستحق الوقوف عليه، من فارق الحياة في المسـتشـفى او جاء من قرى الجزيرة مكفنا، مثواهم الأخير كفوف غريبة عليهم تدعوا لهم بالرحمة.

انفض الجمع الذي تعدى ثلاثة عشـــر رجلا وصـــبيان وثلاثة أطفال، رتبت مســكني وجمعت ملابســي التي لا تتعدى خمســة قطع ثلاثة منها تركها لي بزيانوس قبل سـفره اما القميص والبنطال فقد جئت بهما من ود مدني، لم يكن يدور في بالي شـــيء ســوى الانتقام، فها انا الآن قارب عمري الخامسة والثلاثين، نازحا في اقصى شرق السودان أعيش في مبنى توفره لي وزارة التربية والتعليم ولا هدف لي بعد الآن، اكتفيت من مشاهدة المجازر التي يقدم عليها الجنجويد، واكتفيت من تصريحات السياسيين الداعمين لهذه الحرب التي أهلكت الشعب السوداني، ليس من طموحاتي بطولة زائفة مثل التي يعيشـــها بعض المؤثرين على الانترنت، ولا املك الشـــجاعة للتشـــهير والتهديد لكني اريد ختاما جيدا لما تبقى من عمري، اعلم يقينا ان هذه الحرب آتية لا محالة لتسـقطني كما اسـقطت الآلاف من الشـباب والأطفال والنسـاء، ربما خرجت من الكوة بحثا عن حياة افضـــل ومن يدري ربما في القتال اجد ما عجزت عن العثور عليه حتى الآن.

اخذت الهاتف وكتبت رسالة طويلة للدهباية، اعتذرت لها عن تقصـــيري في حقها، وعن عجزي في منحها الحياة

التي حلمنا بها منذ خمسة أعوام، وطلبت ان تسامحني في حال لم نلتقي مرة أخرى، وفي الختام وعدتها أنني في حال منحني الله عمرا جديدا سوف أعوضها عما فقدته وصبرت لأجله، وفي حال كان نصيبي لحاق الذين سبقوني، عليها أن لا تحزن لأن الموت في سبيل الأوطان شرف لا يناله الكثيرون.

لم يكن لدي أي فكرة اين أجد معسكرات الاستنفار لذا توجهت لأقرب قسم شرطة، انتظرت هناك حتى السابعة مساء حيث وصلت حافلة تحمل عشرات من الشبان فيما عرفت لاحقا انهم راغبين أيضا بالاستنفار في صفوف الجيش، رجال من شتى بقاع السودان، الشرق والغرب والشمال والجنوب، ملامحهم المختلفة تحمل طابع الانتقام والغضب المكبوت، يرسمون الموت في حدقات عيونهم، وزفيرهم محمل بأسى الفقد وفراق الاهل.

وصلنا بعد ثلاثة ساعات الى معسكر للتدريب، لحقنا بمئات الذين سبقونا، وبعد المرور على لجنة تجنيد تحققت من معلوماتنا ومناطق قدومنا خلصت الى تقسيمنا ومن ثم توزيعنا، كان نصيبي ان التحق بشعبة المخابرات العسكرية، ومهمتي ليست المشاركة في العمليات القتالية بل الذهاب الى مناطق تواجد هؤلاء الجنجويد لمعرفتي

القليلة بهم وتجربتي في التماهي وسطهم، اعترف انها لم تكن رغبتي ابدا العمل في الظل، لكن تمكن الضابط من اقناعي ان العودة الى الكوة هي أنسب واهم مهمة يمكنني القيام بها ولا تقل عن تفريغ الرصاص في رؤوسهم، لذا وافقت وقضيت ستون يوما بين العمل البدني والمحاضرات النظرية ثم خلال خمسة عشر يوما كنت املك قدرة جيدة في استخدام السلاح، واليوم استعد لتنشق هواء الكوة مجددا ورؤية منزلنا مرة أخرى، سأعود وحدي بعد ان اختارت حاجة التومة بيتا آخر لا حزن فيه ولا تعب.

يحدوني شعور غريب بالحنين والخوف مما سأقدم عليه هناك، فمنذ معرفتي بأني عائدا اليها لا فكرة تنمو في رأسي سوى إطلاق ثلاثة عشر رصاصة على رأس الأستاذ حسين، وكل من يعاون او يصمت على أفعال هؤلاء الكلاب.

أخبرني الضابط المسؤول ان هناك من سيتواصل معي كل يوم جمعة ليطلب المعلومات التي اجمعها، وما يهم أولا هو وصولي بسلامة والبدء في محاولة الاندماج وسطهم.

السيارة التي اوصلتني الى حدود المدينة الشرقية كانت تتبع لمنظمة الهلال الأحمر السعودي، اقلوني من مدينة المناقل بعد ان وصلتها على متن مروحية عسكرية، الآن انا امشي على قدمي وفي المدى تلوح بيوت الطين التي اعرفها جيدا، مدينتي الحبيبة، هوائها النقي تزاحمه انفاس الجنجويد الملوثة بالمخدرات ودخان الحشيش، في كل خطوة اقترب منها تتضح مدافعهم المستعدة لإطلاق الرصاص حتى على الذباب، تبدو اكثر هدوء من ذي قبل، تقارب الساعة نحو الثانية عشر ظهرا، لا أطفال يلعبون في الطرقات، لا نساء واقفات على أبواب البيوت، ولا كلاب تتنقل بين الجدران القصيرة وظلال الأشجار.

لم أتوقع هذا الهدوء، بقبضة السلاح فرضت هذه المليشيا على الناس تقبل وجودهم، لم يلاحظ أحد دخولي، مررت بمجموعة منهم تلهو على سيارة منزوعة السقف ينتصب في وسطها سلاح ذو فوهتين، يقف على السيارة ثلاثة منهم ورابعهم السائق تعلو رؤوسهم تلال من القماش المزركش بالألوان الغامقة، هتفت عليهم: "جاهزية فجر وعشية" فتبسموا ببلاهة رافعين قبضة أياديهم عاليا: "الله أكبر".

وهكذا كنت انجوا من شــكوكهم واســئلتهم المفترضـــة، قابلت بعضـــهم على دراجات نارية، ومجموعة أخرى تجلس أمام محل لبيع الأدوات المنزلية، كنت أبادر برمي التحية عليهم بشــعاراتهم المنافقة، أحيانا أردد "الله أكبر" وفي احيانا أخرى "جاهزية ســرعة حســم" وهكذا حتى وصلت الى طريق منزلنا، سهل علي خداعهم، امنحهم ما يريدون – شــعور صــدق قضــيتهم – وهم في الأســاس انجس خلق الله.

وصلت الى طريق منزلنا، معظم البيوت مغلقة، كان هذا الشـــارع يزدحم بلهو الأطفال، صـــياح الديوك ونباح الكلاب، اما الآن فهو غابة من الصــمت الا بضــع اقدام تخرج من هنا وهناك، لا تزال هنالك ســيارتان تتبع للمليشيا تقف أمام منزل الأستاذ حسين، تحرسه كعضو في البرلمان، وهناك في آخر الطريق ثلاثة ســيارات أخرى وضــعت عليها ســقف من قماش معلق على قوائم حديدية تغطي الســيارة ذات اللون الأبيض والتي احالتها الاوساخ والاتربة للأصفر القاتم..

أخيرا وقفت امام منزلنا، عدت الى الكوة بعد طول غياب، وحدي بلا والدتي، احمل معي شــهور من العذاب والنزوح، لا تزال نقرات الرصـــاص التي تركتها على

الباب في مكانها، كنت قد أغلقت الباب حين غادرنا اما الآن فهناك متنفس يقول ان البيت مفتوحا، دفعته الى الداخل ولم يعجبني اطلاقا ما رأيت، طفل صغير يلهو في الحوش، هناك طفل عاريا يجلس في منتصف بيتنا، لقد سكن البيت اغراب، لقد سكن بيت حاجة التومة امي أغراب، وقفت متسمرا في مكاني، لم يكن البيت كما تركته قبل تسعة اشهر من الآن، أثاث جديدة، ألعاب أطفال، غسالة كهربائية، ثلاجتان، ستائر على باب العريش المتهالكة، مهلا حتى العريشة تمت إعادة بنائها، تقدمت ببطء نحو الداخل، فجأة ظهرت امرأة غريبة، ملامحها غريبة لا تشبهنا، جدلت شعرها ضفيرتان وعلى خديها وسمين، ركضت سريعا نحو طفلها، فزعت صارخة:

- أبلدة حرامي.

وقفت في مكاني، أدركت خطورة الموقف، يوشك أن يأتي جنجويديا غاضبا ليفرغ ثلاثة عشر رصاصة على صدري أو ظهري، فخرجت مسرعا، هاربا من منزلي، خرجت تاركا بيتي لسكانه الجدد، نفدت بحياتي خائفا مرة أخرى.

أين اذهب الآن؟

ابتعدت بما يكفي دون ان يلمحني ثلاثة رجال غاضـــبين خطواتهم مســـرعة نحو مصـــدر الصـــوت، ولم يكن لي خيار آخر سوى اللجوء الى الأستاذ حسين، اعلم تماما ان ما تركته خائفا من قبل لا يمكنني اخذه دون ان اواجه خوفي، من قبل كانت حاجة التومة هي ســـببي الوحيد للهدوء وعدم المقاومة، أما الآن فالوضـــع مختلف تماما، لم آتي الى هنا من أجل الرضـــوخ، لم أعود لكي أهرب مرة أخرى، هذه الحرب جنودها نحن، الشـــعب الأعزل، والرجال المســـنين ثم الجيش، تبدأ المقاومة حين يموت رجل أعزل دون ان يخرج من ارضه، والانتصار الكبير يأتي بعد أن تهزم مدافع اعدائك بصـدر عاري، لا يمكنك ان تحلم بهزيمة عدوك في الخارج قبل ان تهزم عدوك في الداخل، عليك ان تقاتل خوفك قبل ان تقاتل خوف الآخرين.

من حسن حظي ان الأستاذ حسين كان على وشك ركوب ســيارته حين وصــلت منزله فترجل مرحبا، مارس علي مهارته الفائقة في النفاق والتضامن الذي تجيده كل النخب الســياســية التي تتصــدر المشــهد الوطني، اســتقبلني في ديوانه المليء بالأســـلحة وماكينات الطباعة وكاميرات التصـوير، بينما تحت الأسـرة والكراسـي تترامى ملابس

الجنجويد وأحذيتهم، كنت متأكد منذ اللحظة الأولى التي حضرت فيها اجتماع أعيان المدينة هنا قبل تسعة اشهر أنه واحد منهم، الأستاذ حسين لا يدعم الجنجويد، بل هو واحد منهم، اصبح منزله مركز لقيادتهم وحصنهم المنيع.

تناولنا الطعام معا، ولم اترك له زمام الحديث ليسألني ما لا أحب الحديث عنه، اخبرته عن اعتقالي في طريقي نحو قرية ام جديان من قبل الجيش، وعن العذاب الذي شهدته هناك، اخبرته كذلك عن رحلتي الى مدينة كسلا والمآسي التي سببتها الحرب في الجميع، قاطعني واثقا:

- لقد اخبرتك ان هذه الحرب لن تنتهي الا بالتفاوض.

ثم أكمل حديثه وفمه يكاد يرمي الطعام، طمني هل الوالدة بخير؟

- ربنا يرحمها، توفيت في الجزيرة ابا.

كف عن الأكل، ثم ردد "البقاء لله، ربنا يرحمها" وأكمل حديثه وهو يغسل يديه، متى وصلت الى هنا؟

- قبل ساعتين، لقد هربت من معسكر للجيش، يريدون أن يجندوني ولا أريد ذلك، لا اريد المشاركة في حربهم الكاذبة.

لمعت عيناه وهو يسمع حديثي، لقد منحته ما يريد سماعه، رميت له الطعم، يظنني الآن من أشد الكارهين للجيش، يرى في حزني وغضبي الظاهري مشروعا جديد لعميل آخر، يراني متعاونا مستقبليا.

انهيت طعامي بعد ان مررت له ما يريد، أخبرته عن قسوة الجيش في تعذيبي، عن سخطي الكبير عليه بعد وفاة والدتي في منطقة تسيطر عليها قواته، وفي ختام جلستنا أخبرته عن منزلي، ذكرت له أن هنالك أسرة جديدة تقطنه، ومنحته خيار آخر، أن لا بأس إذا وجد لي مسكن صغير أعيش فيه فربما هذه الاسرة لا مكان لها، تهللت اساريره فرحا، وصاح لأحد الجنود أن يتصل بالقائد، اشعل سيجارة اجنبية طويلة ثم ارخى بطنه الضخمة وهو ينفث سحب الدخان نحو النافذة.

لم يهزمنا قط الا مثل هؤلاء الخونة، آه لو كان بإمكاني فعلها الآن، لخنقته بيداي العاريتين وكتمت على أنفاسه، لكن لكل اجل حين، ربما هو ليس في اعلى قائمتي الآن، لكني لن أترك الفرصة دون أن ارسله الى الرجلين الذين

قتلتهم من قبل، علي الآن أن اقنعهم بأني راغب في التجنيد، يجب ان نحارب الخبث بالخبث، ولا تهزم الخيانة الا خيانة أخرى، سأعيش ما تبقى من عمري أنتقم لأسرة صديقي آدم، واسرة الحاج عبد الله، سأنتقم لكل من مات ولم يسمع احد بموته كما لم يسمع احد بحياته، ربما يعتقد العالم الخارجي ان هذه حرب بين قوات متمردة وقوات الجيش، لكنها ليست كذلك، هذه حرب استعمار، بل حرب هوية، ولا يمكن ان تهزم هويتنا السودانية الراسخة في جزور التاريخ من قبل هؤلاء الشرزمة، وهنا بالتأكيد قبور تسعهم جميعا، مرتزقة من دول الجوار، أو غاضبين معمي البصر والبصيرة من أبناء الشعب، او أجانب مهاجرين مثل أولاد الضيف وعرب الشتات.

لم تمضي نصف الساعة حتى دخل علينا صبيا مجعد الشعر، يخفي جسده النحيل خلف البدلة العسكرية وتتدلى على عنقه التمائم حتى منتصف صدره، عيناه الصغيرتان تنظراني بحذر، ألقى التحية بيد طويلة ثم جلس مواجها لي بينما يتوسطنا الأستاذ حسين.

اخرج حزمة من جيبه ثم سحب الطاولة الخشبية امامه، قصاصات ورقية وصناديق سجائر، قطع حشيش صغيرة

وولاعة زرقاء، عكف على الطاولة غير آبها بصمتنا، فكسر الأستاذ حسين حالة الجمود قائلا.

- هذا اخونا وجارنا في الحي واستاذ في المدرسة، وقد توفيت والدته في مناطق الجيش بسبب اهمالهم، ولا اعلم إذا كان يريد الانتقام ام لا.

كان الرجل ذو الوجه القبيح يعمل على اغراضه تلك يستمع لأكاذيب الأستاذ حسين، ما زال ماهرا في تزييف الوقائع، وتجميل الأكاذيب.

رفع الرجل وجهه وبعد انتهى من لف سيجارة الحشيش ثم شبت نار الولاعة الزرقاء في راس السيجارة سألني:

- يعني انت برضو ضد الفيلول؟

نعم، انا ضدهم، اجبته وقد ركزت نظري على عيناه الضيقتان.

استطرد الأستاذ حسين وهو يتناول سيجارة الحشيش منه:

- وهو الآن عاطل عن العمل كما تعلم فقد توقفت الدراسة منذ بداية الحرب، وأفكر في توظيفه معي في العمل المكتبي.

قاطعته:

ماذا عن الميدان؟ واكملت حديثي، لم تعد لدي رغبة في الحياة، وإذا مت فرغبتي ان يكون موتي في سبيل قضية عادلة.

أعاد الأستاذ حسين السيجارة للرجل ذو الوجه القبيح، ثم سألني:

- هل تجيد استخدام السلاح؟

كاد سؤاله أن يحرجني فأجبت نافيا، ثم نهض الرجل الجنجويدي مغادرا بعد ان اوكل الأستاذ حسين بالمهمة، "اجعله يعمل في المكتب الإعلامي، لكن انت ستكون مسؤولا منه".

كان الأمر سهلا، أن تتوظف في جلسة حشيش، ومع ذلك اعلم تمام العلم انه لا يفرق معهم ان مت اليوم او غدا، فانا مجرد عدد من مئات انضموا راضخين، قدموا فروض الولاء والطاعة وعلى عنقهم السكين.

بالنسبة لي الان تأكدت تماما ان الحرب هذه مجرد كذبة ابتدعتها كيانات ليس لهم هدف الا السلطة، تختلف مسمياتهم وتتفق أهدافهم واكاذيبهم التي يسوقونها لنا.

ظللت رفقة الأستاذ حسين ما يقارب الساعتين، حدثني فيها عن مشروعهم نحو الديموقراطية، وجزم لي أن قادة الحراك المدني الذين يركضون في شوارع لندن وأزقة أديس أبابا هم المعنيون بنهضة البلاد بعد انتصار الجنجويد على الجيش، وذكر لي كذلك ان الكيزان هم اول من أطلق الرصاصة الأولى وهم من اشعل الحرب، كان هرائه الكثير غير ذات أهمية لأذني جاريته فقط حتى جاء احد الجنود ليخبرني ان منزلي قد عاد إلي.

قال مرحبا:

- يا قايد البيت فاضي توا ينضفوا فيه.

لم يكن من الصعب علي فهم انه يقصد "قائد" بكلمة قايد، لكن ما لم استوعبه بسرعة هو أنه كان يقصدني أنا، لقد جعلوني قائدا، سألت الأستاذ حسين:

- هل يقصد أنني قائد؟

نعم، تم منحك رتبة عقيد. قال ذلك وعلى وجهه رسم ابتسامة مصطنعة. وأكمل حديثه، انت الآن ضابط في قوات الدعم السريع.

لم يمضي على انضمامي لهم سوى ثلاثة ساعات، لم أمر بكشف طبي، لم يعرفوا اسمي الثلاثي بعد، لم يتأكدوا من ولائي لهم ولقضيتهم الكاذبة، ومع ذلك صرت ضابط برتبة عقيد، وأولئك الكلاب الذين سرقوا منزلنا قبل تسعة أشهر سوف يؤدون التحية لي، لا بل ينفذون أوامري.

عجيب جدا امر هذه الدنيا، لقد كنت من قبل مشتبه به، كنت ضحية لهم، استباحوا بيتي، قتلوا صديقي، قلعوا ممتلكاتي بقوة السلاح، والآن يطيعون أوامري، ربما سهولة تحول هذه الأدوار ليس الا فرصة للانتقام، ولا أفكر في تضييع هذه الفرصة.

نهضت عائدا الى منزلي، طلب مني الأستاذ حسين أن أمر عليه غدا صباحا بعد أن آخذ قسط من الراحة بقية هذا اليوم، وبمروري عبر باب منزله كان هنالك مرتزق آخر، ناولني مفتاح ظننته لباب منزلي، فإذا بها سيارة بيضاء أشار اليها قائلا "تفضل يا قايد هذا مفتاح السيارة".

اردت فقط إلقاء نظرة عليها، درت من حولها، ليست غريبة علي، عربة هيونداي بيضاء ذات ستائر داخلية على زجاج البابين الخلفيين، تذكرني بالسيدة سمية، اذكر جيدا انها كانت تشتري مني السمك وبسبب بكاء طفلتها

الكثير كنت أحضـــره لها في هذه الســـيارة، لقد نزعوا اللوحتان منها، فتحت الباب الموازي لباب الســائق، تفوح منها رائحة قذرة، جوارب ومناديل ورق وزجاجات خمر فارغة ورصــاص مرمي في الأرضــية، نظرت للمقاعد الخلفية، مقعد مخصـــص للأطفال، انها هي ماذا فعلوا بالمسكينة وطفلتها؟ اعطوني سيارة تلك الأرملة، جعلوني مجرما مثلهم، ناديت الصـــبي ذو البشـــرة الداكنة قذر الرائحة، اعدت له المفتاح قائلا: "لا اعرف كيف اقود سيارة".

سألته قبل مغادرتي:

- اسمك منو؟

عليوة يا جنابو. أجابني بصــوت جهور يحمل في موجاته طبائع القتل والتدمير.

تركته في مكانه وعدت الى منزلي، خرجت تلك المرأة وطفلها، لم تأخذ شـــيئا من المنزل، ثلاجتان وغســـالة كهربائية، ســـتائر ومفارش، أكواب زجاجية، تلفاز، مكنسة، مفارش جديدة، أسرة ومراتب اسفنج، لقد جاءت بمسروقاتها الى بيتي لتصنع لها منزلا تدعوا اليه أكثرهم فحولة آخر الليل، طمســت كل ذكرياتنا البســيطة، لم يكن

يشــبه بيتي في شـــيء، لا أثاث، لا صــور معلقة، ولا اشـخاص، لم يكتفوا هؤلاء الملاعين بتهجيرنا واسـتيطان بلدنا، بل شـرعوا في تدمير كل شـــيء يرمز إلينا، حتى الجدران الطينية قد لطخوها بألوانهم الغريبة.

لم يكن لدي سـبيل آخر سـوى التأقلم، ظللت طوال الليل أسـمع صـوت أمي وهي تحكي لي عن طفولتي، صـوت ضـــحكتها يرن في أذني حين ألقي عليها الدعابات، أرى ميشـــو يلعب في الفســـحة التي ترقد أمام الباب، وهناك والدي يقرا القرآن في غرفته، لم يتركوا لي شـــيئا أعيش له، دمروا الماضي وأحرقوا المستقبل.

قبل الفجر بقليل استسلمت للفكرة التي لا اريد الاعتراف بها، رغم أن حقيقتي شـيئا، فواقعي شـيء آخر، باسـتثناء قلة من الضـــباط في معســـكر ما في شـــرق الســـودان وشـــخص ســوف يلتقي بي قريبا فكل العالم يراني واحد منهم، وأنني سـوف اسـتيقظ صـباحا برتبة عقيد ضــمن مليشيا الموت السريع، سأكون جنجويدي بصورة رسمية إلى حين قريب.

أبلدة

حل الصباح الدافئ ساكنا، لم اسمع صياح ديوك او غناء طيور، جل المواطنين ملتزمين ببيوتهم ما لم يخرج المضطرين لأعمالهم حتى يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة، سأمر بالأستاذ حسين عند العاشرة ولدي الآن ساعتان قررت أن امر على جيراني.

السيد محمد ساتي وأسرته منزلهم ملاصق لمنزلي من الشرق وجدت بابهم مغلق، أكل الصدأ القفل الحديدي ونمت الحشائش أسفل عتبتهم، آمل أن يكونوا بخير وقد غادروا من هنا، أما عائلة المرحوم العم ميرغني اول من استقبلني منهم كانت العمة زكية ثم أبنتاها وعد ومي وقد ألحوا على أن اتناول شاي الصباح معهم، قدموا لي شاي اللبن الذي كانت تعده حاجة التومة، وقد حزنوا جدا لسماعهم خبر وفاتها، وجوههم آسفه ذابلة، لقد تمكن الخوف منهم وتمكنوا منه، وجد مساحة ينموا فيها بداخلهم، تحدثنا عن أمنياتنا بنهاية الحرب، كذلك عن الموت الذي اصبح مجرد اخبار تتناقلها الألسن في المقاهي والطرقات، لم تعد تنقبض الصدور لسيرته.

بدوري حكيت لهم جزء بســـيط مما مررت به في رحلة نزوحي، وحين سـألتهم عن أبنهم الأكبر مصـطفى تنهدت العمـة زكيـة بعمق، رمـت نظراتهـا الآســـفـة في البعيد وقالت:

- دخـل مع الحيوانـات ديـل. صـــمتـت لبرهـة، ثم اســـتدركت، ما كان في حل تاني، يا يكون معاهم ويحمي أخواته، يا يكون ضدهم.

أكدت على حديثها، وطمأنتها كاذبا، "كل شـــيء ســيكون بخير". ولم يطول بقائي طويلا معهم، أخبروني كثير من الحكايات المأســـاوية التي حدثت، كم من أســـرة أجبرت على مغـادرة منزلهـا نحو المجهول، عن الأطفـال الـذين خطفوا ولم يعادوا لذويهم الا بعد دفع مبالغ ضـــخمة، مع كل كلمـة تدخل الى اذني يزداد كرهي لهم، تكبر العداوة فيما بيني وبينهم.

غادرتهم نحو منزل الأســـتاذ حســين بعد ان ودعتهم الى حين زيـارتي القـادمـة، مـا زال يتبقى ليوم الجمعـة يومـان لذا لـدي متســـع من الوقت لمعرفـة معلومـات ذات قيمـة يمكنني أن أقدمها للجيش، أتذكر جيدا كلمـة الســـر التي سـيقولها لي زميلي الآخر الذي يعمل هنا أيضـا لمصـلحة

المخابرات ومن ثم يمكنني معرفة الوســـيلة التي ابلغ بها قائدي في المخابرات العسكرية.

حين وصلت الى منزل الأستاذ حسين لم انتظر طويلا في ديوانه الواســـع حيث قادني الى غرفة في الطابق الثاني، سـبعة من أجهزة الكمبيوتر متراصـة على طاولة خشـبية طويلة تنتصب على الحائط، امامها بالطبع سبعة كراسـي كبيرة من الخشـب، كانت الغرفة اشـبه بمعمل الحاسـوب في المدرســة الثانوية، يجلس ثلاثة شــبان مشــغولين في الشـاشـات الملونة بينما يجلس الأسـتاذ حسين نهاية الغرفة على اريكة جلدية، ألقيت عليهم الســلام ثم انغمســت في فهم ما الدور المنوط بي القيام به، اخذني الأسـتاذ حسـين في جولة طويلة من الحديث غير المجدي عرفت منه ان مهمتي هي مراقبة الاتصـالات التي تتم بين جنود المليشيا في المدينة وأهاليهم وتقديم تقرير مفصـــل عما يدور في كـل مكـالمـة، بعـدهـا عرفني موقع عملي وهو الجهـاز السـابعة، سماعة سوداء ضخمة وضعتها على رأسـي في انتظار بدء عملي.

يبدأ دوام عملي من الثانية عشـر وحتى الســادســة مســاء، ولأحرص على ابعاد شكوك الرجل ذو الوجه القبيح عني سألت الأستاذ حسين:

- كم سيكون مرتبي؟

نهض باسما وهو يغادر قائلا: تسعمائة ألف.

أي ثلاثون ألف في اليوم، هذا ثمن باهظا يدفعونه لهلاكهم، الآن قد نزلت ميدان القتال.

مضى اليوم دون أي مكالمة، واليوم الذي تلاه كذلك وفي الثالثة عصرا من يوم الجمعة وصلتني رسالة ورقية أن هنالك مكالمة بعد ثلاثة دقائق من جندي اسمه كمال كودي كمال فاستعديت.

تحدث كمال مع امرأة، لم أتبين علاقته بها، لكني اظنها زوجته، حكى لها عن الأموال التي جمعها في حسابه ببنك الخرطوم، وكذلك عن الدهب الذي يكتنزه لها حتى وصولها مدينة الكوة، ثم أخبرها عن صديقه الذي قتله أبلدة في قرية ما قد دخلوها سابقا وكيف انتقم منه بقتل كل اسرته، وفي ختام مكالمتهم وصته أن يختار لها منزلا من ثلاثة طوابق وكهرباء وسيارة كبيرة ثم أنهى الاتصال.

كتبت تقريرا مفصلا عن المكالمة، لقد تحدث سبعة عشر دقيقة لم يذكر فيها قط الديموقراطية التي غزو بسببها المدينة، لم يتحدث عن النضال المصطنع الذي يزينون به

خطاباتهم العفنة، كل حديثه كان يدور حول غنائهم المسروقة من البسطاء والمساكين.

لم أنسى قط هذه المكالمة، كانت عبر هاتف متصل بالأقمار الصناعية، حفظت الرقم جيدا في راسي عسى أن يكون مفيدا لاحقا، أخذت التقرير وبعثته للأستاذ حسين وغادرت الى بيتي.

من بعيد رأيت أمام بيتي شبح ما، لم اتبين ملامحه حتى اقتربت بما يكفي ليعانقني مرحبا، كان هو جاري مصطفى، نحف جسده، وبانت عظام رسغه، حكي لي عن الليالي التي لم يستطع النوم فيها بسبب قلقه على أهل بيته، وانه لم يطمئن عليهم حتى التحق بهؤلاء المرتزقة، ثم قبل مغادرته منحني ساعة سوداء وقال: "هذه الحرب ستكون هلاك جنجويد كل الأرض"، هذه كانت كلمة السر، مصطفى يعمل لصالح المخابرات العسكرية.

في الباب قبل أن اودعه أكد علي أن هذا الأمر يبقى سرا بيننا، لا داعي لتعرف والدته، ووعدته بذلك، ثم ذكر لي أن هذه الساعة في الثامنة مساء من كل يوم جمعة وحدها تصبح جهاز إرسال رسائل صوتية للقادة كل الذي علي فعله هو الضغط على زر الثواني مطولا للتسجيل ثم

الدقائق مطولا لوقف التسجيل ووحدها سوف ترسل التسجيل الصوتي بعد التاسعة مساء.

عدت إلى الداخل يأكلني القلق، لا يمكنني الانتظار حتى أعلن ولائي لجيش بلادي، وأخيرا حين دقت الثامنة، ذكرت كل تفاصيل تجنيدي وسط كلاب الموت، وذكرت لهم كذلك عن الأستاذ حسين، وأخيرا ذكرت المكالمة التي راقبتها وبقليل من التركيز تذكرت الرقم الذي استخدم في الاتصال وأنهيت التسجيل.

في اليوم التالي، وعند الثانية وتسعة عشر دقيقة أخبرنا الأستاذ حسين أن جميع القوات في المدينة أصبحت على أهبة الاستعداد، لقد أصاب طيران الجيش ثلاثة سيارات للمليشيا وهي في طريقها عائدة من قرية ما شمال مدينة الكوة.

حين جاءت أسماء الذين قضوا نحبهم في هذه الغارة، كان يتصدر اللائحة اسم اعرفه جيدا، " كمال كودي كمال".

من أجل صديقي ميشو

لم تكن الأيام التسعة التالية مثيرة بما يكفي، كل المعلومات التي استطعت الحصول عليها وارسالها للجيش لم تكن كافية لإحداث تأثير حقيقي على ارض الواقع حتى البارحة حيث سمعت ان قوات الحركات المشتركة تتقدم غربا من مدينة المناقل صوب الكوة.

معظم ايامي كنت امر بطرقات المدينة والأزقة الضيقة، اشم رائحة الخوف من بيوت المواطنين، اسمع همساتهم الخفيفة التي ترجوا نهاية الحرب اليوم قبل الغد، ومع ذلك هم قد استسلموا لواقعهم الذي فرض نفسه عليهم، يدفن الجار جاره اليوم ليصافح الذي قتله في اليوم التالي بوجه بارد وشعور مكبوت، أصبحت هذه المليشيا كالسرطان هنا، تجدهم في تجمعات شبكة الاتصال العديدة في الاحياء، يؤجرون الساعة بخمسة ألف جنيه لمن يريد الوصول للإنترنت، يفرضون الضرائب على التحويلات المالية القادمة من الخارج، يتقاسمون مع المواطنين حتى صناديق السجائر التي تسلبهم صحتهم، ومع تقدم الوقت أصبحت وجوههم مألوفة للجميع، لكنتهم المكسرة صارت مفهومة واكثر تداولا، نسائهم صنعوا

لهم سوق خاص بهم، يبيعون فيه بضاعتهم المسروقة، ويعرضون الدقيق المنهوب من الخرطوم بسعر أرخص.

هنا تنتشر الشائعات أسرع من الصوت، ويتناقل الناس فيما بينهم أخبار اقتراب الجيش من المدينة كأسرار حرب، تسلم من أذن الى أخرى بحرص شديد، فجزاء الخونة هو الموت بأبشع الصور.

بحثت مطولا عن السيدة سمية، لم أترك زاوية في المدينة الا وحرصت على السؤال فيها، يقلقني أمرها جدا، فهي امرأة وحيدة، توفى زوجها وترك لها طفلة تنمو في أحشائها وثروة تقدر بثلاثة متاجر للعطور والملابس والحقائب وسيارة هيونداي بيضاء، ما انا متأكد منه ان متاجرها لم تعد تعمل لصالحها، وسيارتها عرضت علي في يوم انضمامي لهؤلاء المليشيا، لذا لم يتبقى لها شيء سوى رحمة رب العالمين، آمل انها قد رحلت إلى مكان آمن في السودان الواسع هذا.

كنت لا أزال نعسا اقاوم رغبة الاستلقاء الملحة عند الصباح، سمعت أصوات الرصاص تنهال كالمطر في الطريق امام بيتي، نظرت من فوق السور القصير فإذا بسيارة من احدى سياراتهم تعترض عربة سوداء بعد ان ثقب الرصاص زجاجها من كل جانب، اثنان منهم

اخرجوا السائق الذي قد لقي حتفه على الفور ودمه يتقطر كقماش بلله المطر، لقد قتلوا سائق السيارة، عدت الى الداخل غسلت وجهي وارتديت ملابس لائقة واسرعت نحوهم.

لم يسمحوا لي برؤية الجثمان، مغطى بقماش أبيض وممدد على الأرض، سحبني الأستاذ حسين الى الأعلى، نبرته كانت غريبة نوعا ما، قال وهو يربت على يدي:

- البقاء لله، كان خائنا يعمل متعاون للجيش.

بالنسبة لي كان الأمر مرعبا في البداية، حاولت ان أخفي ارتباكي، هل اكتشفوا هويتي ويحاولون الضغط علي؟ اجبته واثقا:

- ثمن الخيانة هو الموت.

تنهد بأريحية ثم أكمل:

- لقد خدعه الجيش، ارسله لموته وهذا جزاء كل من يعاونهم، من الأفضل ان تخبر انت اسرته؟.

لماذا أنا؟ سألته فجأة. لا أعرف اسرته.

نظرته المشفقة ذكرتني شيئا ما فاستدركت، من هو، هل انا أعرفه؟ وكنت في يقيني اعلم تمام العلم انه هو، جاري مصطفى.

لم يجيبني، فنهضت وكشفت وجهه، شاب في ريعان شبابه لم يكمل دراسته الجامعية بعد، أفنى حياته في سبيل أهله ووطنه، لم يهرب مثلما فعلت من قبل، لم يتوانى في القيام بمهمته، تاركا والدته وشقيقتاه في حماية رب العالمين، عسى ان يتقبله الله شهيدا.

اخذت مني الحرب هويتي، مهنتي، شردتني، قتلت والدتي، قتلت جاري، استعمروا مدينتي وقاسموني حتى الهواء الذي يحيط بي ثم وظفوني ومنحوني راتبا.

ثم يخرج علينا بعض الكلاب المأجورة التي تدعي الحياد، ممن يلبسون رداء الديموقراطية، يعيشون في أقاصي البلاد الغربية والشرقية، آمنين لكي يحدثوننا عن انتهاكات حقوق الإنسان، يعلنون تضامنهم الكامل مع الشعب السوداني الذي يعيش بين ويلات الحرب والجوع، ولا يستطيعون ان يوجهوا سهام النقد لهذه المليشيا الإرهابية، لأن كفيلهم الأجنبي قد دفع لهم أموالا طائلة واشترى ذممهم في سبيل تلميع كلابه التي دنست أرضنا الطاهرة.

يخلدون للنوم ويستيقظون ولا شغل لهم شاغل سوى شن حروبهم الشعواء ضد الجيش السوداني، يخوضون حرب بالوكالة ضد المؤسسة التي جلسوا معها يوما وتقاسموا الكعكة، كابوسهم الأول طائرات الجيش التي تضرب تجمعات هذه المرتزقة، ينبحون لأيام إذا أعلن الجيش تحريره منطقة ما، وانتصارهم الذي لن ينالوه أبدا هو عودتهم مرة أخرى الى السودان.

الأستاذ حسين واحد منهم، لا أعرف الثمن الذي قبضه لكنه يعمل بكل قوته حتى يثبت ولائه لهؤلاء الشرذمة الباغية، خرجوا فجأة من منافيهم، وبلدانهم الأجنبية ذات يوم ليسرقوا الثورة التي جاء بها شباب لا توجهات سياسية لهم، رتبوا أنفسهم، صدروا لنا واجهات إعلامية في شتى المجالات، شعراء، اعلاميين، فنانين، ممثلين، وناشطين في المجتمع حتى يمرروا عبرهم أجندتهم، وحين دقت ساعة الصفر وتحالفوا مع الشيطان ظنوا في جنودنا البواسل الهوان، اعتقدوا أن الصقر محاصر ويسهل صيده، وباءت خططهم للظفر بالسلطة، والآن يتراكضون ككلاب الأحياء من دولة الى دولة، من ملجأ إلى ملجأ، لا نخوة بقلوبهم، لا شرف عرفوه يوما.

كان الخبر ثقيلا على العمة زكية وبنتيها، ثلاثة أيام قد مرت ولا يزالون كتومين، لم يسمع لهم صوت بكاء، لم يصدروا أي ردة فعل تجاه رحيل ابنهم الوحيد، أخيهم وأبيهم وسندهم في الدنيا، اكتفوا بلبس الأسود، تحترق قلوبهم في صمت.

في اليوم الرابع قررت العمة زكية الرحيل من المدينة، اثرت أن تترك جسد ابنها الشهيد هنا والبحث عن وطن آخر، لعل اسمه كافيا ان يشعل نار المقاومة في الناس، قالت لي وهي تحزم امتعتها في السيارة، "لقد توفى ابني بملابس المعتدين، مات وهو يحارب بلاده، لا تكون مثله".

علمت حينها لما لم يحزنوا، كان من الصعب علي ان لا اصحح لهم اعتقادهم، قبلت يدها قائلا، "مصطفى مات شهيدا يا امي، مصطفى كان يعمل لصالح الجيش، ابنك كان مدافعا لوطنه"

تحركت العربة بعد ان اجهشت بالبكاء، جرى دمعها سريعا مندفعا كطائر وجد حريته أخيرا، رحلت العمة زكية وبنتيها، ورحل صديقي زوفا شهيدا، رحل العشرات من أبناء المدينة، رجال في أواخر عمرهم، شبان في ريعان شبابهم، وصبيان يتلمسون طريقهم في

الحياة، تمكن السـرطان ان يهدم عشـرات السـنوات من الأمن، والحياة، سـلب الناس كل ما يدفعهم لعيش حياتهم ببهجة وأمان، من لم يموت من رصـاصـهم مات بتعذيبهم في المعتقلات ومنافي الاختطاف، والذي تبقى انضـم لهم على أمل النجاة من الموت القريب.

فيما تلى من أيام، قللت المليشـيا من حملاتها الباغية، كانت تتلذذ بنهب المواطنين، فرض الضـرائب على كل من يحمل نقودا، اقامات بيوت الخمر والعهر، بل أجبرت العشـرات من المغلوب على امرهم من النسـاء والفتيات ان يعملن في الدعارة، يجبرن على مواقعة المئات من المرتزقة نظير حفنة من الجنيهات لا تسـد لهن رمقا، وذات ليلة سـاقني القدر الى بيت في جنوب الحي، حيث سـمعت احد هؤلاء المليشـيا يتحدث عن امرأة أرملة مسـجونة هناك من قبلهم، حين وصـلت كان البيت عبارة عن غرفة واحدة حديثة البناء، وسور قصير، كنت اسمع صوت طفل يبكي قبل دخولي البيت.

دفعت البـاب المفتوح فـإذا بطفلـة مرميـة على مفرش بلاسـتيكي تصـرخ ملء حنجرتها وجندي واقف بالقرب منها يحمل سـلاحا موجها نحوها، طفلة لم تتعدى الثلاثة

أعوام يصـوب سـلاح عليها، رآني الرجل فضـم سـلاحه وانتصب واقفا، قال مرتبكا:

- تمام جنابو القايد، اتفضل.

لم أرد عليه، اسـتمريت في المضـي قدما نحو الغرفة المغلقة، اسمع نحيب امرأة، التفت سألته:

- من هنا؟

سـعيد، ده سـعيد طبنجة يا قايد، ثم صـاح لصـاحبه، يا طبنجة في قايد هنا.

خرج الرجل يغلق حزامه ويرتب ملابسـه النتنة، جمع شـتات أنفاسـه اللاهثة، ثم خرجت بعده امرأة ذو وجه متورم مليء بالندوب، ترجف كمن لسـعها البرد، حافية تعرج على قدمها اليمنى، لفت حولها ملابسـها واقمشـة عديدة، لقد اعتدوا عليها، هذا ما رأيته أمامي، لقد هددوا طفلها ثم اعتدوا عليها.

خرجت مسـرعة وحملت طفلتها وانكبت تقبلها وتحضـنها بكلتا يديها، ثم رأيت سلسله تقيد قدمها اليمنى وهي عائدة الى الداخل، قيدوها ككلب مسـعور، سـلسـلة تمتد لداخل

الغرفة، انها مسجونة هنا. التفت للرجلين وقلت لمن يحمل سلاحا:

- منذ متى وهي هنا؟

شهرين، اجابني وهو يقف على يسار زميله.

- منذ شهرين وأنتم تعتدوا عليها وتغلقوا عليها المنزل؟ لم أنتظر إجابة منه، واصلت حديثي وانا امشي بخطوات ثابتة نحوه، ولم تفكروا مطلقا ان بقائها حية سوف يجلب لنا المشاكل اذا هربت؟..

صمت الرجل، رموا اعينهم على الأرض، استطردت حديثي، أعطيني هذا السلاح، هذه المرأة يجب ان تموت.

رفع الرجل وجهه مندهشا، ثم مد لي السلاح قائلا، سامحنا يا قايد.

قلت وأنا اشد أجزاء البندقية "لا سماح في العرض، أو الأرض، لا سماح لمعتدي" ثم أطلقت رصاصتين عليهم، ارديتهم قتيلان، ارسلتهم للجحيم حيث يمكنهم طلب السماح هناك من الله بينما تتعفن أجسادهم القذرة في الدرك الأسفل من النار.

حررت المرأة، لقد عرفتها منذ اللحظة التي رأيت فيها الطفلة، كانت هذه السيدة سمية، سرقوا محلاتها التجارية، وبيتها، ثم انتهكوا عرضـــــها، وزرعوا الخوف في قلبها كل يوم، كحيوان مفترس قيدت بالحديد، أما الآن ليس عليها القلق على طفلها، منحتها ثلاثون ألفا وخرجت بعد ان شكرتني مبتعدة، اظنها تعرف وجهتها، رميت السلاح في مكانه قرب الجثتان، لعل أحدهم يكتشف وجودهم هنا ولو بعد ألف عام، لأنني على ثقة أن حتى الديدان لن تفكر مطلقا بملء بطونها بهذه الابدان الفاسدة.

يوم الجمعة وبعد مضـــــي ثلاثة أيام نقبت أنوفهم زكمة الرائحة النتنة، تعرفوا عليهم ســــريعا فأمر قائدهم أن اجمعوا القوات، عند الثالثة عصـــرا ما يفوق الثلاثون عربة بكامل عتادها العسكري جمعت في السوق الكبير ثم خطب فيهم قائدهم أن اضربوا واسرقوا واحرقوا، أي بيت لم يرسل أحد أبنائه لينضم إلينا فهو عدو، أي منزل لم يدفع الجزية فهو عدو، وكل رجل يرفض الانضمام لنا فهو متهم بقتل الرجلين ويجب أن يموت.

انطلقوا كالذئاب الجائعة، احرقوا مخازن الذرة ومتاجر الاقمشة، نهبوا البيوت الفارغة واغتالوا ستة عشر رجلا ممن قاوم بغيهم، صـــمت عقيم خيم في الأرجاء، رفعت

اعلامهم في كل البنايات العالية، احتلوا المنازل المهجورة واعتدوا على عشــرات النســوة اللاتي رفضــن منحهم مـدخرات حيـاتهن، اســتمرت حملتهم الانتقـاميـة حتى السـابعة فعادوا الى السوق يفرغون الرصـاص في الهواء ويلقون التهـديـدات على الطرقـات الخـاليـة، أذيع عبر مكبرات الصــوت في المدارس والمســاجد ان من يوالي الدعم الســريع فهو آمن، وأن من يدفع الجزية فهو آمن، وان من يـدلهم على مخبرين الجيش فهو آمن ومـا دون ذلك فهو فيلول توجب سحقه بلا رحمة، بينما كنت استمع لأهازيجهم وصــخبهم الدموي اســتطعت ان اعرف عدد سياراتهم القتالية ونوعية أسلحتهم، كنت في منزل الأستاذ حسين رفقة اثنان من الجنجويد الذين يحرصون المنزل.

كـانـت نظراتهم لي لم تعجبني مطلقـا ومع ذلـك فهمـا لم ينطقا حرفا واحدا، مكتفيان بالنظر فقط لا شــيء آخر، كنت بحاجة لبعض المســاحة حتى أحاول العثور على معلومـة أقدمها للجيش لا ســيما والثامنة تقترب، وحين استنفدت الخيارات ناديتهم، سألت الأول:

- لما تنظران لي هكذا؟

نريد ان نعتذر لك عما حصل سابقا كانت لدينا أوامر.

- ماذا تقصد أوامر؟ وجهه لم يكن غريبا علي، تذكرته نعم، هذا الرجل الذي قتل صديقي، رسمت ابتسامة جانبية على وجهي وسألته:
- انت من قتل الكلب صحيح؟

نعم، وانا آسف على ذلك.

التفت للرجل الآخر، وأنت ماذا فعلت؟

- انا أحرقت الستائر. قال ذلك وخاط فمه بصمت طويل.

فكرت سريعا، ثم قلت "لا بأس لم نكن نعلم أننا سوف نكون في ذات الجانب، لا عليكم ما فات مات".

في قرارة نفسي اردت أن اخنقهم بيدي العاريتين، لكني اردت لهم موتا أكثر متعة، موتا مؤلما، هذه فرصة أخرى قد سنحت لي، كم يجيد القدر تصفية الحسابات، صحيح في البداية لم اريد الانخراط في هذه الحرب، اردت العيش مسالما، طيبا، بشوشا، ولكن اجبرتني الظروف، وعلمتني التجارب ان الحرب حين تطرق بابك صار واجبا عليك ان تحمل سلاحك، درسا مؤلما تعلمته بعد فترة طويلة لكن لم يفت الأوان بعد.

ملئت السـطل الحديدي بالماء وفتحت الحنفية حتى ملئت الحوض وبللت أرضية الحمام، ومن ثم مددت سلك على الجانب ورميت طرفيه على الحوض الممتلئ ورفعته عبر النافذة الصغيرة الى الخارج حتى وضعته بإحكام في المقبس الكهربائي وعدت إلى الداخل، ظللت لما يقارب دقيقتان ومن ثم ناديت على الأول، كان شـعره الكثيف يخفي جبهته، ملابسـه تحمل عشـرات البقع وكتل الطين وعرق جسده القذر الذي لم يستحم لربما منذ عامين، جاء يمشي مترددا، ادعيت انني مشغولا على جهاز الكمبيوتر أمامي وقلت:

"السـطل في الحمام امتلأ بالماء، أخرجه"، فدار سـريعا الى الداخل، آخر ما رآه كانت عيناي، واثقا مضـى الى الفخ، سـمعت صـوت ارتطام بالأرض، صـوت رفس وضـرب على الباب، لم يسـتطع الصـراخ، لحقته الى الداخل، وقع نصـف جسـده الأعلى في الحوض ونصـفه الآخر على الأرض، مـات المرتزق بعـد أن تمكن من الرقص خوفا هـذه المرة، لم تحميـه التمـائم التي يعلق العشـرات منها على عنقه ووسـطه، لم يحميه سـلاحه أو بطاقة المليشـيا، أغلقت الباب عليه ثم عدت الى مكاني مرة أخرى، كانت بقية القوات لا تزال في الخارج تزعج

الناس برصـــاصـــهم المطلق في الهواء، جاءني الرجل الآخر وسألني عن صديقه قلت:

"في الحمام منذ عشـــرة دقائق، ألقي نظرة عليه هل هو بخير"، فلحق هو الآخر بصــــديقه، فتبعته على رأس اقدامي حتى فتح الباب وقبل أن يصـــدمه ما يرى دفعته بقوة رطمت راسه بجانب الحوض الرخامي ولست أدري هل مات بسبب الضربة أم بالكهرباء.

لم يكن الامر مخيفا، لقد نـالوا جزائهم واعترف أني شـعرت براحة غريبة تسـري في جسـدي، لم يكن عليهم حرق ستائر حاجة التومة، أو رمي صديقي ميشو بثلاثة عشـــر رصـــاصـــة، الآن عليهم ان يحتكموا عند العزيز الجبار.

دقت الثامنة ولم يتبقى لي وقت هنا في هذه المدينة، قمت على عجل بإتلاف كل أجهزة الكمبيوتر، حيث شـــغلتها وصــببت الماء عليها وشــاهدتها حتى احترقت، ثم دلفت الى الغرفة المجاورة، كســرت القفل واشــعلت النار في ملابسهم واعلامهم والصناديق الخشبية وخرجت مسرعا، كانت هنالك عربة هيونداي بيضـــاء تقف بجانب المنزل وفي المقعد الخلفي كرســـي أطفال، وجدت المفتاح عليها ومن حسن حظي ادرت المفتاح ودار محركها، قدتها نحو

الشـرق وابتعدت مسـافة كافية ثم شـغلت جهاز التسـجيل على معصـم يدي اليسـرى، اخبرت الضـابط عن افعالهم هذه الليلة وعن عدد سـيـاراتهم الذي يقارب الثلاثون او أكثر بقليل، كذلك اخبرته عن الأسـتاذ حسـين والبيوت التي يرتكزون بها عادة، ثم أخيرا ابلغته بخروجي عائدا الى المناقل.

كان الظلام موحشـا جدا في الطريق، اسـتمريت في المضـي قدما ما يفوق نصف الساعة حتى لمعت ضربات الطائرات كانفجار شـمسـي مهول اضـاء الفضـاء، توالت الضـربات حتى العاشـرة ليلا وفي منطقة ما عثرت على شجرة وحيدة تنتصب في صحراء شاسعة، توقفت عندها واستكنت.

كنت بحاجة للراحة، وأيضـا لا يمكنني السـفر في هذه الأرض الحليقة وفي هذه الظلمـة، في الغد عند مطلع الفجر سـأكمل طريقي نحو القيادة في المنـاقل، تـاركا مدينتي الحبيبة مرة أخرى، لكني واثق تماما من عودتي هذه المرة، لأني غادرتها محاربا لا هاربا، تركتها جدران مهجورة تنام على كومة رماد وجثث متفحمـة، آمل ان يستحق كلاب الجنجويد العذاب الذي ينتظرهم بعد موتهم، وان يرحم الله الشهداء.

الموت للجنجويد

لم يطول بقائي في المناقل أكثر من ثلاثة أيام قضيتهم في قيادة الجيش اتابع مواقع التواصـــل الاجتماعية وما يدور فيها من لغو وتزييف للحقائق ثم في اليوم الثالث كلفت بمهمة أخرى، أخبرني الضـــابط ان وجهتي التالية هي مدينة نيالا غرب السودان.

قدر قائد المروحية الوقت المتوقع لوصـــولنا الى مدينة الفاشـــر أربعة ســـاعات ونصـف ومن هناك علي ان أجد طريقة ما أصل بها الى مدينة نيالا.

الآن أزيز المروحية العســـكرية يحلق بنا في الســـماء الزرقاء الصـــافية نحو الغرب، النيل الأبيض من أســـفلنا يجري بطيئا وحزينا، تناولنا أطراف الحديث قليلا حول الحرب وما قد تنتج عنه ثم تركني قائد المروحية شـــاردا في الأسفل متتبعا مجرى النهر الجميل.

خطرت ببالي احدى المقالات التي رأيتها على الانترنت، ذكر كاتبها أن نتيجة هذه الحرب لن تخرج من احتمالان، أولا هزيمة ساحقة للجنجويد بعد ان يقضوا على نصف الشعب بالقتل والتشريد وبالتالي تعود الأمور السيادية للجيش، أو هزيمة الجيش لا قدر الله من هؤلاء المرتزقة، ويتحول السودان لدولة تدار من دولة خليجية عبر عملائها الذين يرتدون العباءات السياسية ويحاولون بكل قوتهم ادخل قوات أممية تمنحهم السلطة التي يحلمون، اما الاحتمال الثاني ان تنتهي الحرب بالتفاوض وينقسم السودان مرة أخرى كما انقسم الجنوب من قبل.

انا لست من دعاة الحرب، ولست كاره للسلام لكن حين فرضت علينا الحرب لم يكن لدينا خيار الاستسلام أو التفاوض فليس من المنطق أن تعتدي على منزلي وأقول لك دعنا نتفاوض على خروجك من المنزل دون سرقة شيء او أذية أحد، وما حدث لسكان الكوة من استعباد كان نتيجة رضوخهم للتفاوض، ذات الوجوه التي جلست مع الأستاذ حسين في صالون منزله وصافحت الجنجويد يدا بيد، هي نفسها تلقت الضرب والشتائم وتعرضت للنهب والقتل والتشريد، اما انا فقد اخترت النزوح حينها، وعشت أهوالا لم تخطر ببالي يوما، لكني ادركت ان

حربا جاءت لدارك لا يمكنك ان تفوز بها بالتفاوض لمجرد انك خائف من الموت.

أيقظني قائد المروحية من شرودي هذا وقال متحمسا "لقد تبقت لنا ساعة واحدة للوصول، كن مستعدا حتى تلتقي بأبطالنا في الفاشر".

عدت الى النظر عبر النافذة، صحراء قاحلة تسكن في الأسفل وبعض الأشجار هنا وهناك، لقد سمعت كثير عن المعارك التي دارت في الفاشر وعن أبطالنا في القوات المسلحة والقوات المشتركة لكن الذي أبهرني تماما هو ثبات وشجاعة النساء هناك وهن يزدن عن بيوتهن وابنائهن، لقد حملن السلاح وعشن في المعسكرات وخاضوا المعارك، فعلن ما عجز عنه الكثيرين ممن يعيشون على نفقات اللجوء وكل يومهم ممسكين بالهواتف ينتقصون من الجيش ويحاولون النيل من قادته طلبا لرضا اسيادهم المتآمرين علينا، ومؤكد لو لا ثبات كل المدافعين هناك عن المدينة لسقطت هي كذلك وربما صعب استعادتها مرة أخرى.

تذكرت أحد الرجال في مدينة كسلا حين كان الشباب والشياب يمارسون فلسفتهم في السياسة على قهوة أدروب حيث مقولته "اذا أراد الجيش أن يفصل السودان عليه أن

ينســـحب من الفاشـــر، حينها ســـيدخل الجنجويد المدينة وتنتهي الحرب بقيام دولة أخرى من السودان".

لا اعرف لما تذكرت هذه العبارة تحديدا دون كل ذلك الحديث الغير منطقي، ربما لأن خوفي الوحيد هو ان تتحقق هذه المقولة، ان ينجح الطامعين في تقســـيمنا مرة أخرى.

انا لست متخصصا في السياسة ولا اجيد قراءة الاحداث حتى اتنبأ بما هو قادم، كل ذخيرتي هي علوم الرياضيات والقرآن الكريم الذي أخذته عن والدي، ومع ذلك بات واضحا أمامي ما يحيكه أعداء بلادنا.

أخبرنا الســـاســـة وكلابهم على الانترنت أن مصـــر هي العدو اللدود للسـودان، وان تقدمها مرهونا بتأخرنا وعلى النقيض في ذات الوقت تحتضـــن بلاد الكنانة ملايين من الســـودانيين واللاجئين والطلاب والمرضـــى بل حتى العاملين، انا لا علم لي بالخصـــومة الســـياســـية بين الحكومات، لكن لا احب عض اليد التي ســـاعدتني، ومن الغريب في نفس الوقت ان هنالك دولة ما بعينها، ثبت للعالم اجمع مشـــاركتها الأســـاســـية في الحرب علينا، بضـــباطها واســـلحتها وخبرائها وأجهزتها المتطورة في دعم مليشـــيات الجنجويد ومدهم بكل ما يلزم لمزيد من

الدمار، ومع ذلك لم يخرج علينا يوما واحد من هؤلاء ليدين ما تفعله، او حتى ليشـــير اليها تورية، ربما خوفا منها، او خوفا من انقطاع دعمها المادي، ويسـمي نفسـه متحدثا باسم الشعب المغلوب على أمره، لا عجب في قوة عينه فالخائن الذي يبيع وطنه فهو قد سـبق وباع شـرفه وحيائه.

حطت المروحية أخيرا في معسـكر الجيش، وصـلنا الى مقر الفرقة السادسة مشاة الفاشر بسلام، استقبلنا لفيف من الضـباط وضـباط صـف بالتكبيرات والتهليلات، وجوه بشوشة عازمة على الثبات مهما تكالبت عليهم الأعداء.

بلغت الضـابط المسؤول بوصـولي، اوصـلوني الى عنبر الجنود، أسـرة حديدية وبعض المفارش البلاسـتيكية على الأرض، تضـج العنابر بالأهازيج الوطنية، لم يسـبق لي ان عشـت هذه الأجواء الحماسـية منذ طابور الصـباح في المدرسة الثانوية.

في المســاء أخبرني الضــابط أن طريقة دخولي الى نيالا ســتكون محفوفة بالمخاطر، علي ان أقوم بتهريب احد رجال الجنجويد المقبوض عليهم في اخر معركة دارت وهو من مدينة نيالا، وحين نصل الى قواته علي ان اثبت لهم ولائي التام ما يمنحني الفرصـــة للذهاب رفقته الى

المدينة، وهناك علي ان اجد وسيلة ما تجعلني أكون على مقربة من المطار أرصد ما يتم فيه عبر الهاتف وارسله للقيادة.

في الليل، كسرت القفل الحديدي للزنزانة، كان نائما على الأرض عاريا من الملابس سوى سروال قصير من القطن، نهض على مضض شعره الكثيف يغطي معظم وجهه المتورم ويداه الداميتان ترجفان في توسل، اضئت كشاف الهاتف نحوه، زحف مبتعدا نحو الجدار، طمأنته: "هيا سنهرب الآن أيها القائد".

لم يكن واثقا من كلامي، تصلب في الزاوية وضم قدميه الى صدره، منحته قنينة ماء بلاستيكية ثم رميت له ملابس عسكرية، وقلت: "ارتدي هذه سنخرج الآن".

رفع رأسه نحوي سريعا ثم خطف الملابس، لم ينطق بحرف، تسللنا عبر ممر أعد لنا مسبقا حتى وصلنا الى مدرعة تقف في احدى جنبات المعسكر، منحته قطعتي خبز وأدرت المحرك بينما أراقبه بطرف عيني يلتهم الخبز في نهم الصائم، خرجنا من نقطة التفتيش الأولى، ثم الثانية، وحتى آخر نقطة تفتيش في مدخل المدينة الجنوبي، ابتعدنا ما يكفي حتى بدأ صديقي في البكاء، ينتحب كطفل ضائع من أمه في السوق، سألني:

- اسمك منو؟

اسمي صالح يا قائد. بالطبع لم يكن اسمي الحقيقي، لكني ابتدعت هذا الاسم للخروج من هذا المأزق.

- صـــالح، انت بطل يا أشـــوس، لكن كيف دخلت المعسكر؟

كان سؤاله متوقعا لي، وكنت مستعدا بالإجابة، قلت "انا في استخبارات الجاهزية من قبل سنة ونص".

تنهد بعمق، تهلل صوته وسكنه الارتياح، سألته.

- هل تدخن يا قائد؟

أجابني بنعم، كانت هناك ثلاثة صـــناديق ســـجائر في العربة، منحته صندوقا وعلبة ثقاب، التهم ثلاثة سيجارة متتالية، وقضى على قنينتي ماء كانت رفقتنا، سألته مرة ثانية.

- من وين انت يا قائد؟

من نيالا، حي البحير، وأردف يســألني، معاك تليفون نتصل بالأشاوس في نيالا؟

ناولته الهاتف واستطردت: يعني نمشي نيالا؟

- نعم، نرجع نيالا، اجابني وهو مشـغولا بتذكر رقم هاتف ما.

قضينا طوال ثلاثة ساعات مشيا بالسيارة حتى استطاع ان يتذكر رقم هاتف ما أجرى معه الاتصال.

لم يسـتغرق من الوقت الكثير حتى تهللت أسـاريره ولكزني على كتفي مبشرا "مبروك يا بطل، لقد نجينا من أولاد الكلب، الأبطال في الطريق إلينا".

بعد نصـف سـاعة أخرى قرر أن نتوقف في قرية محروقة، كل الذي تبقى بيوت القش المتفحمة والآيلة للسقوط. "سنستريح هنا وفي الصباح ستأتي قواتي إلينا" قال ذلك وهو ينفث دخان سـيجارة أخرى مسـتلقين في الجزء الخلفي من المدرعة المكشوفة.

سـألته، "كيف انضـممت الى الدعم السـريع؟ ما قصـتك حتى وصلت للقيادة في صفوف الاشاوس؟.

رمى نصـف السـيجارة ومدد قدماه القذرة أعلى المقعد المجاور لي وقال:

كنت طفلا صـغيرا حين جاءت قوات الجنجويد المدعومة من الحكومة الى قريتنا، قتلوا ابي وامي بالرصـاص،

واغتصبوا اخواتي الثلاثة وأحرقوا اخي الرضيع في القطية، سرقوا كل أغنامنا وتركونا في العراء بلا مأوى ولا ماء للشرب ولا أهل، لم ينجوا من قريتنا الا ثلاثة منا كنا قد انزوينا في حفرة ما في مدخل القرية، شاهدنا كل ما حدث، دون ان نقول شيئا، لقد كبرنا وهدفنا الواحد كان هو الانتقام من الحكومة والكيزان، وبعد عشرين عاما جاء إلينا القائد ومنحنا الأسلحة وقام بتدريبنا وسافرنا الى الخرطوم، هناك يعيش الناس في العمارات الطويلة، لا يعانوا مثلنا في البرد او الحر، يشربون الماء من الثلاجات والحنفيات، لا يخزنون مياه الأمطار في الحفائر مثلنا، لديهم ثلاجات وتلفزيون ومكيفات، يعيشون في نعيم ثم يحسدوننا في الجحيم الذي نعيش فيه، لذلك كانت قضية الاشاوس عادلة هي المساواة والحرية، عليهم أن يذوقوا الموت الذي أذاقونا له، ويعيشوا الذل الذي شعرنا به.

صمت لفترة من الوقت ثم استطرد متسائلا، وانت، قصتك شنو؟

قلت، لم يكن لدي قصة مثل قصتك هذه، لكني اردت العدل مثلك، اردت الحرية، ووطن سليم معافى، يعيش فيه ابن الوزير وابن الغفير بلا تمييز، ان يحصل الجميع

على فرص متساوية في التعليم والصحة، وان يحاسب القانون الجميع بدون تمييز في اللون او العرق، ولم يكن لتحدث هذه الأشياء والكيزان يحكمون السودان، لذلك انضممت للأشاوس في اول فرصة سنحت لي.

أشعل سيجارة مرة أخرى وقال ساهما في زرقة الليل المرصعة بالنجوم:

"انا مدينا لك بحياتي، وسوف افعل كل ما أستطيع فعله من اجل ان تكون حيا وترى ما قاتلت لأجله يتطبق في السودان الجديد".

سكن صمت عميق بيننا، كانت نبرته الرزينة تخفي الكثير، لوهلة من الوقت كدت أن انساق خلف مبرراته التي ذكرها حتى تذكرت أن كل تلك الاهوال التي عاشها في طفولته كانت من قبل الجنجويد وهم ذاتهم نفس الفئة والأشخاص الذين يقاتل في صفوفهم، لقد تمكنت هذه المليشيات من تطويع الملايين من السودانيين في الغرب والوسط والجنوب ومعظم مناطق السودان عبر تأجيج نار الفتن والانتقام، دفعت ملايين من الجنيهات والدولارات لضعاف النفوس من الساسة وضباط الجيش والكيزان والمواطنين حتى يخدموا خططها ويمرروا اجندتها، ومع ذلك لم تستطع الوصول الى ما أرادت،

كانت عزيمة الشـــرفاء أكبر من رغبتهم في الســـلطة والحكم.

بعد برهة من الوقت اســـتغرق الرجل في النوم، جســـده الهزيل ممد في ســبات عميق، كانت فرحته بالخروج من هناك مثل فرحة الأب بمولوده البكر، بكائه كالنســاء اثبت ان خوفه على حياته أكبر من يقينه بقضيته التي يقاتل من اجلها، وهي ذات الحياة التي يســـلبها من أبرياء آخرين بدعوى الانتقام، هذا عذر اقبح من الذنب، لم يكن الشعب الأعزل يوما طرف في حرب، لطالما كانت الجيوش هي التي تقاتل وتقتل بعضـــها البعض، اما ما تفعله هذه المليشيا القادمة من أواسط افريقيا هو إبادة جماعية بحقنا في السودان.

تملكني النعاس رويدا رويدا، لا اعرف ماذا يخفي القدر لي غدا، لكني قد أكملت نصـف مهمتي بنجاح وإذا شـــاء الله ان تكون نهاية حياتي غدا، حتما لن أكون آخر شـــهيد ان معركتنا ليســت ضــد الديموقراطية التي يتشــدق بها النشـــطاء الآمنين على الانترنت، وليس دفاعا عن فلول المؤتمر الوطني والحركة الإسلامية، نحن نخوض حربنا ضـد عدو يقتلنا وينهبنا ويعتدي على اعراضـنا، وكل من ســـانده هو عدو لنا، وكل من دعمه هو عدو لنا، ولن

تنتهي هـذه الحرب إلا بخروج هؤلاء الكلاب من آخر شبر من بلادنا.

في الفجر ايقظتنا أصـوات الرصـاص المفرغ في الهواء والتهليلات، ثلاثة سـيارات محملة بالجنحويد كانت تحيط بنـا، افزعت منـام الرجل النـائم في الخلف، ثد هدئت مخاوفنا حين اسـتكانت ضـوضـاء المحركات، اسـتقبلنا الرجال زوي العمائم الضـخمة بالعناق والتهاني، منحونا ملابسـهم الصـفراء باهتة الصـفرة، تفوح منها رائحة دماء الأبرياء.

ارتديناها على عجل ثم انتقلنا الى سـيارة أخرى وقد منحت مسـدسـا جديد فضـي اللون، ثم قال الرجل: "اخونا البطل صالح أصبح حارس شخصي لي".

ثم تحرك الموكب، ثلاثة سـيارات محملة بالمرتزقة والمأجورين من شـتى بقع افريقيا اللعينة يقاتلون من اجل قضـية سـامية يسـميها الناس المال، كنت وسـطهم كقطعة بصـل فاسـدة تدنس الكيس، كبرتقالة معطوبة حشـرت في منتصـف صـندوق الفاكهة.

مضـت السـيارة حتى وصـولنا الى حي المطار، رأيت أخيرا وجهتي في المدينة، توقفت السـيارة قرب صـندوق

حديدي عملاق قرب المطار يكاد يوازي طوله مقدار عمارة سكنية من ثلاثة طوابق، نزلت خلف الرجل واكملت السيارات طريقها، قال لي وهو يطرق الباب: "لقد وصلنا الى المخزن هنا يمكنك ان ترى ما نملكه من عتاد وقوة" أعاد الطرق مرة أخرى وهو مستمر في حديثه لي "سننتصر لا محالة، لن نترك أحد من أولاد الغلفة في الشمال".

كانت كلماته العنصرية تخرج من لسانه القذر بسرعة وحماس، بعد ان فتح احد الجنود الباب استقبلتنا جبالا من صناديق الذخيرة والطائرات المسيرة، أسلحة ومدافع، براميل الوقود وراجمات، سيارات دفع رباعي ومئات الآلاف من الملابس العسكرية وبنادق الكلاشنكوف، تمشينا في ممر ضيق يشق الصناديق المتكدسة في كل مكان، كان المخزن الضخم عبارة عن عتاد حربي لدولة كاملة، على يسارنا مجموعة من المرتزقة الأجانب كانت تحيتهم بلكنة غريبة لا تشبه لساننا السوداني، وعلى مقربة منهم مجموعة أخرى تعمل في ماكينة ضخمة لتزوير العملة، انهم يطبعون عملتنا، يزورون أموالنا حتى يشتروا بها ضعاف النفوس، أتسائل كم من المليارات المزورة قد اغرقوا بها السوق؟ وكم من

الملايين التي خرجت من هذا المكان لتستقر في بيت ضابط فاسد ساعدهم في دخول مدينة ما، واصلنا المشي في المكان حتى استقرينا في غرفة ملاصقة للجدار، فتح الرجل الثلاجة المنتصبة بين الفرشين ثم اخرج ثلاثة علب تونة ودجاجة مغلفة بالنايلون، دعاني لمشاركته الأكل ولم ينتظر جلوسي مواجها له بدء سريعا في الالتهام، سألته بينما يشد قطعة من الدجاجة بفكه العريض:

- لماذا لم يخرج هذا العتاد الى ارض المعركة، هذا عتاد جيش كامل؟

قال وهو يبتلع قطعة ضخمة من الدجاجة: سيخرج، غدا سوف يتم أرساله الى أرض المعركة، سندخل الفاشر غدا.

لم اطرح عليه سؤال آخر، تناولت ما استطعت من الطعام المثلج ثم استلقيت في الفراش، بينما قضى صديقي الجشع على كامل الطعام وتناول قنينة حليب ثم تجشأ في قرف، وأشعل سيجارة ومدد جسده العفن في الفراش.

لم يكن ببالي شيء سوى ما قاله هذا الرجل، ماذا إذا صدق قوله وخرجت هذه الأسلحة والمسيرات غدا؟

ماذا سيحدث لا قدر الله إذا سقطت الفاشر؟

مهمتي بسيطة ومحددة، أن ارصد ما يحدث في المطار ولا شيء آخر، لكن هل علي التغاضي عما رأيته الآن؟ أن اتجاهل ما أنا نائم في وسطه؟

ظللت طوال ساعتين اطرح الأسئلة على نفسي، وما من مخرج آخر، ماذا ستقول عني الدهباية إذا علمت أنني قصرت مرة أخرى وهذه المرة بحق كل الأبرياء الذين ماتوا؟ بأي عين ترى سأعود إليها؟.

لقد قررت أن أرسل احداثيات هذا المكان للجيش، نعم، يجب ان تتم إبادة هذا المستودع بكل ما فيه، يمكنني أن انجز المهمتين سويا، ان اجد وسيلة للهرب من هنا قبل وصول طيران الجيش من ثم والعثور على موقع مناسب.

كانت هذه المهمة سهلة للغاية حيث يمكنني التعلل بأي حجة للخروج لاحقا، أخرجت الهاتف سريعا وتسللت الى خارج الغرفة، التقطت عددا من الصور للأسلحة والمسيرات ومن ثم أرسلتهم رفقة احداثيات المكان الى هاتف الضابط المسؤول، ومن ثم حذفت كل شيء على الهاتف ورميته أسفل الثلاجة الصغيرة.

الآن قد يصل الطيران من الخرطوم في زمن أقصاه ساعة ونصف الساعة وهذه فترة كافية تمكنني من الخروج بسلام من هنا.

استلقيت على الفراش، تداعت في مخيلتي لحظة خروجي من الكوة على عربة لنقل الخضار نحو الجزيرة أبا، لقد تغيرت كثيرا لم اعد ذلك الهارب، لقد تعلمت دروسا بالمواجهة لم أكن لأتعلمها بالخوف والهرب، تذكرت كذلك الحاج عبد الله ربما قد نال الشهادة التي يسعى لنيلها، أو ربما ما زال صامدا يقتص لأسرته من هؤلاء المرتزقة.

حين كنت آمنا، نعيش في سلام انا وامي وصديقي ميشو في مدينتنا الجميلة، لم تكن الحرب تشكل اكبر مخاوفنا، كنا نسمع عنها كحدث بعيد لا يمكن ان نعيش وطأته، لكن بعد ان ابتلعنا الطوفان ادركنا نعمة السفن، لقد قضيت نصف عمري اعلم طلابي مكارم الاخلاق والمعاملة الحسنة، كنت اكره العنف حتى على شاكلة عقاب، غريبة هذه الدنيا أنظر لنفسي الآن وقد جعلتني محاربا يجوب اقصى الأرض، لقد قتلت ستة اشخاص بدم بارد ودون ادنى أي شعور بالذنب، وهذا الدرس الوحيد الذي نسيت ان اعلمه لطلابي، ولو عاد بي الزمن

لقلت لهم ان السلام لا يأتي إلا بفوهة البنادق، وأن الأمان الدائم تصـــنعه القوة الدائمة، لا تعطي عدوك فرصـــة ليتنفس حينها لن يتجرأ على التفكير في معاداتك.

تذكرت أيضـــا حديث الرجال في قهوة أدروب، جل حديثهم كان عمن أطلق الرصـــاصـــة الأولى، هم يلقون باللوم على من بدأ الحرب ويحملونه وزر أرواح الأبرياء التي زهقت بغير وجـه حق، لكن الآن وبعد كل هذه التجارب أدركت ان الجنجويد ليس فقط مليشـــيات الدعم السـريع التي نحاربها الآن، فالكيزان الذين صـنعوا الدعم السـريع هم أيضـا جنجويد، والسـاسـة الذين تحالفوا معهم هم أيضـا جنجويد، والمدلسين الذين ينافقون لهم هم أيضـا جنجويد وضـــباط الجيش الذين باعوا وطنهم هم أيضـــا جنجويـد، والمواطنين الـذين تعـاونوا معهم هم أيضـــا جنجويد.

أدركت بعد وصـولي الى هنا في اقصـى غرب السـودان متخفيا وسـط حفنة من القتلة أن الجنجويد فكرة تقوم على القتل والتشـريد والنفاق مهما اختلفت مسـمياتها تظل تعمل بكل مـا أوتيـت من قوة لتخـدم كـل من اجـاد التحكم بهـا وتطويعها، وأن لا فرق بين من حمل سـلاحا وقتل انسـان أعزل وبين من يتغافل عن التصريح بتجريم هذه الجناية.

الآن مر من الوقت ما يفوق نصف الساعة حتى تذكرت أنني في الفاشر لمحت هنالك عدد من الطيران في المعسكر يوم وصولي ولم تمضي إلا ثلاثة دقائق أو ربما اقل حتى سمعت صوت أزيز أعرفه جيدا ثم تلاه صوت فرقعة مدوي وتلاشت بعدها قدرتي على السمع وكل ما أراه هو ظلام، ظلام دامس وطويل، لقد انتهت معركتي، ولم تنتهي الحرب.

الآن سألتقي بوالدي وحاجة التومة، وآمل إذا تذكرني احد ما وعثروا على اشلائي أن يكتبوا على شاهد قبري (هنا يرقد واحد من المئات الذين لم يسمع احد بتضحياتهم).

تمت

اعمال المؤلف

- البكاء في محراب فاطمة - شعر
- لازوريت والتائه - رواية
- بواح الرمق الأخير - شعر
- موتا هنيئا - رواية
- وردة يابسة - مجموعة قصصية
- الموت للجنجويد - رواية - هذا الكتاب